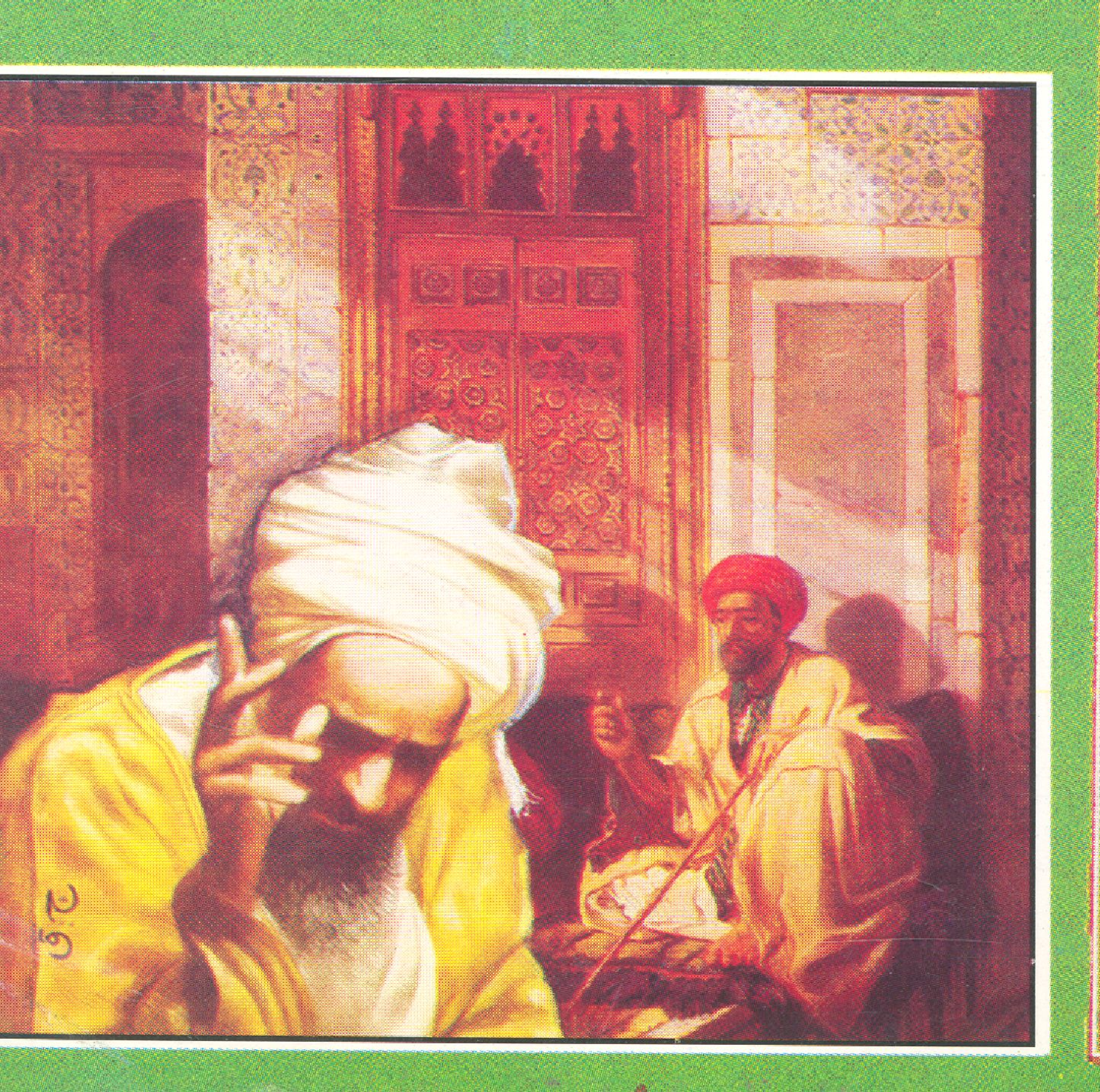
مكتبة
الأسرة
١٩٩٨

مهرجان القراءة للجميع

من عيون التراث

جمال بدوى







الهيئة المصرية
العامة للكتاب

من عيون التــراث



من عيون التراث

جمال بدوى



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(التراث)

من عيون التراث

جمـال بـدوى

الغلاف:

جمال قطـب

الإشراف الفنى:

محمود الهندى

المشرف العام

د. سـمير سـرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

هذا الكتاب

فى هذا الكتاب يغوص بنا الكاتب الأستاذ جمال بدوى فى بحر التراث العربى ليستخرج منه بعض اللآلئ التى ازدان بها تاريخ الثقافة العربية على امتداد القرون الخالية. ويعرض علينا بأسلوب مبسط نماذج من عيون الكتب فى شتى فروع المعرفة، فينتقل بين كتب التاريخ والفقه والأدب والنوادر والفلسفة والتصوف والتشيع المسيحى الذى عكفت عليه الكنيسة القبطية عن طريق الفقيه المسيحى (ابن العسال).

إن هذه الفصول تسد الفجوة القائمة بين الثقافة الحديثة، والثقافة العربية المحفوظة فى بطون الكتب. والهدف هو أن يتعود القارئ على هضم كتب التراث فيطلب المزيد مما فى بطونها من علم نافع وثقافة رفيعة وغذاء للقلب والعقل والروح.

تقديم

تفخر الثقافة العربية بالكنز الضخم العام بأطايب ثمرات الفكر. وإبداعات العلماء والكتاب والفقهاء والمؤرخين، الذين لم يتركوا رافدا من روافد المعرفة إلاّ سبحوا فيه سباحة المقتدر على استخراج اللآلئ، ثم نظمها فى هذا العقد الثمين الذى نسميه «التراث».

وإذا كانت قيمة التراث تقدر بحجم الكتب وضخامتها، فإن رواد الثقافة العربية خلّفوا لنا هرما ضخما. كان كل جيل يضيف إليه مماّ كان، ويكفى أن تعلم أن المغول ـ أعداء الحضارة والعلم والمدنية ـ حين دمروا بغداد عام ٦٥٦ هـ، صفوا من الكتب معبرا على نهر دجلة حتى اصطبغت مياه النهر بسواد الحبر المذاب، وبهذا الفعل الهمجى حرمت الإنسانية من العديد من المؤلفات والمصنفات التى وضعها العلماء خلال القرون السالفة.

إنما القيمة الكبرى للتراث العربى فى مضمونه ومحتواه.. الأمر الذى تنبه له علماء الغرب، فاغترفوا منه وهضموه، وجعلوا منه نقطة

الانطلاق فى بناء صرح النهضة الأوربية، وإذا كانت ثقافة الإغريق هى حجر الأساس فى نهضة أوربا العقلية، فإن الأوربيين لم يعرفوا الإغريق إلا عن طريق التراث العربى الذى حفظ مؤلفات أفلاطون أرسطو وفيثاغورس وإقليدس، وقدمه إلى أوربا مضافا إليه جهود ابن رشد والفارابى وابن سينا. ولعلك تدهش إذا عرفت أن الثقافة العربية الحديثة لم تعرف ابن خلدون إلا بعد أن اكتشفته الجامعات الأوربية كأول فيلسوف للتاريخ وواضع أصول علم الاجتماع. ولم يحدث ذلك لا بسبب الفجوة التى قطعت بيننا وبين تراثنا. ولعل هذا هو السبب الذى دعانى إلى أن أقدم لأجيال الشباب نماذج ـ هذا التراث.

إن مشكلتنا مع كتب التراث إنها لا تزال بعيدة عن أيدى الشباب.. ربما لأسباب اقتصادية، وربما لأسباب تعود إلى عسر هضمها، ومن هنا رأيت أن أقدم هذه الفصول عن بعض الكتب التى استمتعت بقراءتها ووجدت فيها فائدة لا ينبغى أن يحرم منها القارئ الحديث. فهى بمثابة (طعم) يجتذب القارئ ويشجعه على طلب المزيد، وبذلك تعم الفائدة عن طريق مهرجان القراءة للجميع.

وإننى إذ أعرب عن سعادتى للمساهمة فى نشاط «مكتبة الأسرة» لعام ١٩٩٨، لا يسعنى إلا أن أحيى جهود السيدة الفاضلة سوزان مبارك من أجل تعميم الثقافة وتيسير وصولها إلى الأجيال الجديدة من القراء.. وهو عمل يذكر.. فيشكر..

جمال بدوى

مصر الجديدة

يونيو ١٩٩٨

أخبار الأذكياء

لابن الجوزى

«أدب السمر» من أشهى ثمرات الثقافة العربية، وهو لايهدف إلى التسلية أو تزجية الفراغ، كما يتبادر إلى الذهن، ولكنه يقدم إلى العقول غذاء شهياً تقبل عليه النفس لجاذبيته وسهولة هضمه، وكان أدب السمر مادة رئيسية فى جلسات الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة، حيث يتبارى الرواة فى سرد ما جمعوه من قطوف العلم والأدب والفلسفة والتاريخ والفن، وما اقتبسوه من ثقافات الأمم الأخرى، وإلى جانب الروايات السمعية كان العلماء يعكفون على تدوين مايقع تحت أبصارهم من تراث الأسلاف، فيصنفونه فى كتب ازدانت بها المكتبة العربية، منهاعلى سبيل المثال لا الحصر: المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهى، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وصبح الأعشى للقلقشندى، وثمرات الأوراق لابن الحموى، ومجالس

العلماء للزجاجى، والذخائر والتحف لابن الزبير، ومنها هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم: أخبار الأذكياء للعالم المجتهد والفقيه الكبير أبو الفرج ابن الجوزى. المولود فى بغداد عام ٥١٠ هـ، والمتوفى عام ٥٩٧هـ.

وقد يعجب القارئ المعاصر من اهتمام فقيه كبير مثل ابن الجوزى بهذا النوع من الأدب الذى يدخل فى باب الترف العقلى والترويح عن النفس، ولكن يزول العجب إذا تذكرنا طبيعة العصر الذى عاش فيه ابن الجوزى - القرن السادس الهجرى - حيث بلغت الثقافة العربية أوجها، وصارت بغداد مجمعاً للعلوم والآداب، أضف إلى هذا الطبيعة الموسوعية للإمام ابن الجوزى، فإلى جانب كونه فقيهاً ضليعاً، وداعية وواعظاً ذائع الصيت، كان أديباً مطبوعاً، ومصنفاً واسع المعارف، وهب حياته لخدمة العلم وجمع الرحيق من بطون الكتب، فلما اندثرت هذه الكتب وضاعت، بقيت محتوياتها محفوظة فى مصنفات ابن الجوزى، وبذلك احتفظ لنا بمادة غزيرة من علوم عصره لولاه لعفى أثرها، وقد بالغ المؤرخون فى ذكر عدد الكراريس التى دون فيها ابن الجوزى حصيلة معارفه، حتى قالوا إن هذه الكراريس لو قسمت على عدد سنوات عمره، لكان معناها أنه كان يكتب تسع كراريس فى اليوم، وهذا شئ عظيم لايكاد يصدقه عقل - على حد تعبير ابن خلكان فى وفيات الأعيان - وفى هذا دليل على صبر هذا العالم الكبير ودأبه فى خدمة العلم وتدوينه ونشره.

للإمام ابن الجوزى مؤلفات كثيرة ومتنوعة بلغ عددها فى أصدق الأقوال ثلاثمائة وأربعين مصنفاً، وفى تفسير ذلك يقول الأستاذ محمد مرسى الخولى محقق كتاب أخبار الأذكياء: إن ابن الجوزى لم يكن مؤلفاً تقليدياً يحرص على أسانيد الرواة والشيوخ بل كان هدفه من هذه

المؤلفات التبسيط والاختصار لكى تصل إلى أكبر عدد من الناس، وكأنما قد غلبت عليه طبيعته كواعظ يخاطب الآلاف من الناس، فكان يفعل ذلك فى مؤلفاته أيضاً، فهو كان يرتجل مواعظه من أولها إلى آخرها، وكان يؤلف كتبه أيضاً بهذه السرعةوالبساطة، ودفع به إلى اختصار لبعض الأخبار، أو وهم فى نسبتها إلى أصحابها أو إيرادها بألفاظ عامية، لكن ذلك - كما يقول المحقق - قد يكون هدفاً للمؤلف قصد إليه عمداً لتسهيل العلم ونشره والترغيب فى قراءته بين أكبر عدد من الناس، ولعل الدليل على ذلك القصد هو قوله: أنا مرتب، ولست بمصنف.

* ذكاء البشر:

أما الكتاب الذى بين أيدينا فموضوعه «الذكاء» بكل صوره وألوانه من أقوال وأفعال سواء صدر هذا الذكاء عن البشر من أسمى الناس منزلة، أو أحطهم شأناً فيها، وحتى مايصدر عن الحيوان البهيم مما يشبه أخلاق الآدميين وتمييزهم مما ألهمه الله للحيوان للمحافظة على بقائه، سجله ابن الجوزى فى كتابه هذا، مبتدئاً بأسمى الناس مرتبة فى العقل وهم الأنبياء، ثم من يلونهم من الصحابة والتابعين، ثم الخلفاء والأمراء والوزراء والحجاب والشرطة والقضاة والفقهاء، ثم انتقل بعد ذلك إلى مايشبه أن يكون تصويراً للحياة الاجتماعية فى عصره، فتكلم عن أفعال العوام وحيل المحاربين والمتطببين والمتطفلين واللصوص، وأخبار فطناء الصبيان وأذكياء النساء وغير ذلك مما تتضمنه هذه الحكايات التصويرية من مفارقات لطيفة ونوادر طريفة لايملك الإنسان إلا أن يبتسم معجباً بأبطالها وذكائهم، ثم ختم كتابه بالحديث عن الحيوان وذكائه وفيما ضربته العرب والحكماء من الأمثال على ألسنة الحيوان.

* غريزة العقل

استهل ابن الجوزى كتابه بالحديث عن «العقل» فهو أجلُّ المواهب التى وهبها الله للإنسان، وهو الآلة التى بها نعرف الإله، وبه تضبط المصالح، وتلحظ العواقب، وتدرك الغوامض، وتجمع الفضائل، وفى ذكر فضائل العقل يروى أن ابن عباس دخل على أم المؤمنين عائشة فقال لها: ياأم المؤمنين.. أرأيت الرجل يقل قيامه ويكثر رقاده، وآخر يكثر قيامه ويقل رقاده، أيهما أحبُّ إليك؟ قالت: سألت رسول الله ﷺ كما سألتنى عنه، فقال: أحسنهما عقلاً. قلت يارسول الله.. أسألك عن عبادتهما؟ فقال: ياعائشة، إنما يسألان عن عقولهما، فمن كان أعقل كان أفضل فى الدنيا والآخرة.

واسم «العقل» يطلق بالاشتراك على أربعة معان:

أولها: الوصف الذى يفارق به الإنسان البهائم، وهو الذى استعد لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذى أراده أحمد بن حنبل بقوله: إن العقل غريزة، وكأنه نور يقذف فى القلب يستعد به لإدراك الأشياء.

وثانيها: ما وضع فى الطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات.

وثالثها: علوم تستفاد من التجارب تسمى عقلاً.

ورابعها: إن منتهى قوته الغريزية إلى أن تقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة.

ويثور سؤال: كيف يستدل على عقل العاقل؟

يجيب ابن الجوزى: بسكوته وسكونه وخفض بصرِهِ وحركاته فى أماكنها اللائقة بها ومراقبته للعواقب، فلا تستفزه عاجلة عقباها ضرر، وتراه ينظر فى القضاء فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة من مطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ وقول وفعلٍ، ويترك مايخاف ضره ويستعد لما يجوز وقوعه.

وينقل عن أبى الدرداء: ألا أنبئكم بعلامة العاقل: يتواضع لمن فوقه، ولا يزدرى من دونه، يمسك الفضل من منطقه، يخالق الناس بأخلاقهم، ويحتجز الإيمان فيما بينه وبين ربه عز وجل، فهو يمشى فى الدنيا بالتقية والكتمان.

ويروى عن وهب بن منبه، أن لقمان الحكيم قال لابنه: يابنى.. مايتم عقل امرئ حتى يكون فيه عشر خصال: الكبر منه مأمون، والرشد فيه مأمول، يصيب من الدنيا القوت وفضل ماله مبذول، التواضع أحب إليه من الشرف، والذل أحب إليه من العز، لا يسأم من طلب الفقه طول دهره، ولايتبرم من طلب الحوائج من قبله، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعروف من نفسه، والخصلة العاشرة التى بها مجده وإعلاء ذكره: أن يرى جميع أهل الدنيا خيراً منه وأنه شرهم، وإن رأى خيراً منه سره وتمنى أن يلحق به، وإن رأى شراً منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا، فهنالك حين استكمل العقل.

* **فطنة الأنبياء:**

وفى سياق المنقول عن فطنة الأنبياء السابقين أن رجلاً جاء إلى سليمان الحكيم [عليه السلام] فقال: يانبى الله إن لى جيراناً يسرقون أوزى. فنادى: الصلاة جامعة، ثم خطبهم فقال فى خطبته: وأحدكم

يسرق أوز جاره ثم يدخل المسجد والريش على رأسه! فمسح رجل برأسه، فقال سليمان: خذوه فإنه صاحبكم.

ومن المنقول عن عيسى عليه السلام، أن إبليس جاء إليه فقال له: ألست تزعم أنه لا يصيبك إلا ماكتب الله لك؟ قال: بلى. قال: فارم بنفسك من هذا الجبل فإنه إن قدر لك السلامة تسلم، فقال له عيسى: ياملعون.. إن لله عز وجل أن يختبر عباده، وليس للعبد أن يختبر ربه عز وجل.

ومن سياق المنقول عن قوة الفطنة الفطرية عند نبينا محمد ﷺ مارواه على كرم الله وجهه: لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وجدنا عندها رجلين رجلاً من قريش، ومولى لعقبة بن أبى معيط، فأما القرشى فأفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه فجعلنا نقول له: كم القوم؟ (يقصد جيش قريش) فيقول: هم ـ والله ـ كثير عددهم، شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه، حتى انتهوا به إلى النبى ﷺ فقال له: كم القوم؟ فجعل يقول مثل ماقال. فجهد النبى ﷺ أن يخبره كم هم، فأبى، فسأله النبى: كم ينحرون من البعير؟ فقال: عشراً لكل يوم. فقال رسول الله: القوم ألف.. كل بعير لمائة وتبعها.

* فطنة الصحابة:

ومن المأثور عن فطنة الصحابة رضوان الله عليهم: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر من الغار، ولم يستقبلهما أحد يعرف أبا بكر إلا قال له: من هذا الذى معك ياأبا بكر؟ فيقول: دليل يدلنى الطريق.

وخطب رسول الله ﷺ فى أواخر حياته فقال: إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ماعنده، فاختار ذلك العبد ماعند الله عز وجل، فبكى أبو

بكر، فعجب الصحابة من بكائه، وكان أبو بكر أكثرهم إدراكاً بقرب انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى.

وجاء رجلان إلى امرأة من قريش فاستودعاها مائة دينار، وقالا لها، لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه حتى نجتمع، فلبثا حولا، فجاء أحدهما إليها فقال: إن صاحبى قد مات فادفعى إلى الدنانير، فأبت، فلم يزل يضغط عليها حتى دفعتها إليه، ثم لبثت حولا، فجاء الآخر فطالبها بالوديعة، فقالت: إن صاحبك جاءنى فزعم أنك مت فدفعتها إليه، فاختصما إلى على بن أبى طالب، وعرف أنهما قد مكرا بها، فقال له: أليس قد قلتما: لاتدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه؟ قال: بلى قال: فإن مالك عندنا فاذهب وأحضر صاحبك حتى ندفعها إليكما معاً.

ومن المنقول عن العباس (عم النبى ﷺ) سئل: أيهما أكبر.. أنت أم النبى ﷺ؟ فقال: هو أكبر منى وأنا ولدت قبله.

ودخل رجل على حاجب معاوية يطلب المثول، وقال للحاجب: قل له على الباب أخوك لأبيك وأمك. قال معاوية ما أعرف هذا.. ثم أذن له بالدخول وسأله: أى الأخوة أنت؟ فقال: ابن آدم وحواء! فقال معاوية للغلام: إعطه درهماً.. فقال الرجل: تعطى أخاك لأبيك وأمك درهماً؟ فقال معاوية: لو أعطيت كل أخ من آدم وحواء درهماً.. ما بلغ إليك هذا.

* مشغول القلب

ومما يروى عن أحمد بن طولون أمير مصر أنه كان يبكر ويخرج فيسمع قراءة الأئمة فى المحاريب، فدعا بعض أصحابه يوماً وقال: امض إلى المسجد الفلانى واعط إمامه هذه الدنانير، قال: فمضيت

فجلستُ مع الإمام وباسطته حتى شكا أن زوجته ضربها الطلق وليس معه مايصلح به شأنها، وأنه صلى فغلط مراراً فى القراءة، فعدت إلى ابن طولون فأخبرته فقال: صدق، لقد وقفت أمس فرأيته كثيراً، فعلمت أن قلبه مشغول.

ويروى أن الخليفة الرشيد سأل القاضى أبا يوسف: أيهما أطيب مذاقاً: الفالوذج أم اللوزينج (وهما نوعان من الحلوى) فقال أبو يوسف: ياأمير المؤمنين.. لا أقضى بين غائبين عنى، فأمر الخليفة بإحضار طبقين منهما فجعل أبو يوسف يأكل من هذا لقمة، ومن ذاك أخرى حتى أتى على مافيهما ثم قال: ياأمير المؤمنين: مارأيت خصمين أجدل منهما.. كلما أردت أن أحكم لأحدهما أدلى الآخر بحجته.

ويروى أبو يعقوب الرازى الزاهد الصوفى أنه سمع يوسف بن الحسين يقول: قيل لى إن ذا النون المصرى يعرف اسم الله الأعظم، فدخلت مصر وخدمته سنة ثم قلت له: يا أستاذى إنى قد خدمتك وقد وجب حقى عليك، وقيل لى إنك تعرف اسم الله الأعظم، وقد عرفتنى ولا تجد له موضعاً مثلى، فأحب أن تعلمنى إياه قال: فسكت عنى ذو النون ولم يجبنى وكأنه أومأ إلى أنه يخبرنى، قال: فتركنى بعد ذلك ستة أشهر ثم أخرج لى من بيته طبقاً ومكبة مشدوداً فى منديل، وكان ذو النون يسكن الجيزة، فقال: تعرف فلاناً صديقنا من الفسطاط؟ قلت: نعم، قال فأحب أن تؤدى هذا إليه، فقال: فأخذت الطبق وهو مشدود وجعلت أمشى طول الطريق وأنا متفكر فيه، مثل ذى النون يوجه إلى فلان بهدية؟ ترى أى شئ هى؟ فلم أصبر إلى أن بلغت الجسر فحللت المنديل ورفعت المكبة فإذا فأرة قفزت من الطبق ومرت، قال: فاغتظت غيظاً شديداً، وقلت: ذو النون يسخر بى ويوجه مع مثلى فأرة، فرجعت

على ذلك الغيظ فلما أن رآنى عرف مافى وجهى، فقال: ياأحمق! إنما جربناك، أآتمنك على فأرة فخنتنى أفأ أتمنك على اسم الله الأعظم؟ مر عنى فلا أراك.

* أحيل من رأيت:

وعن الشعبى قال: خرج عمرو بن معد يكرب يوماً حتى انتهى إلى حى فإذا بفرس مشدودة، ورمح مركوز، وإذا صاحبه فى وهدة يقضى حاجته، فقلت له: خذ حذرك فإنى قاتلك، قال: ومن أنت؟ قال: عمرو ابن معد يكرب، قال: يا أباثور! ما أنصفتنى أنت على ظهر فرسك وأنا فى بئر، فأعطنى عهداً أنك لاتقتلنى حتى أركب فرسى وآخذ حذرى، فأعطيته عهداً ألا أقتله حتى يركب فرسه ويأخذ حذره، فخرج من الموضع الذى كان فيه حتى احتبى بسيفه وجلس، فقلت: ماهذا؟ قال ما أنا براكب فرسى ولا مقاتلك فإن كنت نكثت عهداً فأنت أعلم فتركته ومضيت؛ فهذا أحيل من رأيت.

وحكى الأصمعى عن رجل جيء به إلى الخليفة المنصور ليعاقبه على شئ بلغه عنه، فقال له: ياأمير المؤمنين.. الانتقام عدل، والتجاوز فضل، ونحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين، فأعجب المنصور بفصاحته وعفا عنه.

وقال الأصمعى: بعث إلىّ الرشيد فدخلت، فإذا صبية فقال: من هذه الصبية؟ فقلت: لا أدرى، قال هذه نواسة بنت أمير المؤمنين فدعوت لها وله. قال: نعم فقبل رأسها، فقلت: إنى إن أطعته أدركته الغيرة فقتلنى، وإن أنا عصيته قتلنى بمعصيته، فوضعت كمى على رأسها

وقبلت كمى، فقال: والله ياأصمعى، لو أخطأته لقتلتك، أعطوه عشرة آلاف درهم.

حدثنا ابن البهلول: أن أبا حذيفة واصل بن عطاء خرج يريد سفراً فى رهط فاعترضهم جيش من الخوارج فقال واصل: لاينطقن أحد ودعونى معهم، فقصدهم واصل، فلما قربوا بدأ الخوارج ليوقعوا، فقال كيف تستحلون هذا وما تدرون من نحن ولا لأى شئ جئنا، فقالوا: نعم، فمن أنتم؟ قال: قوم من المشركين جئناكم مستجيرين لنسمع كلام الله، إشارة إلى قوله تعالى: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله»، قال: فكفوا عنهم وبدأ رجل منهم يقرأ عليهم القرآن، فلما أمسك قال واصل: قد سمعنا كلام الله فأبلغنا مأمننا حتى ننظر فيه، وكيف ندخل فى الدين، فقال: هذا واجب، سيروا فسرنا والخوارج والله معنا يحموننا فراسخ حتى قربنا إلى بلد لا سلطان لهم عليه فانصرفوا.

وحكى أبو الحسن بن هلال الصابى: أن الحجاج انفرد يوماً من عسكره فمر ببستانى يسقى ضيعته فقال: كيف حالكم مع الحجاج فقال: لعنه الله، المبيد الحقود عجل الله الانتقام منه، فقال له: أتعرفنى؟ قال: لا. قال: أنا الحجاج فرأى أن دمه قد طاح فرفع عصا كانت معه، فقال: أتعرفنى؟ فقال: لا، قال: أنا أبوثور المجنون وهذا يوم صرعى وأزبد وأرغى وهاج، وأراد أن يضرب رأسه بالعصا فضحك منه وانصرف.

* نوادر الحجاج:

والروايات عن الحجاج كثيرة وطريفة، وكلها تدور حول المواقف المحرجة التى كان يقع فيها بعض أعداء الحجاج عندما يقعون فى شباكه وهم لا يعرفونه، ومن هذه النوادر أن قال أبو إسحق الجهمى: لما

صرف الحجاج قال لغلام له: تعال نتنكر وننظر مالنا عند الناس فتنكرا وخرجا فمرا على المطلب غلام أبى لهب فقالا: ياهذا أى شئ خبر الحجاج؟ قال: على الحجاج لعنة الله. قالا: فمتى يخرج؟ قال: أخرج الله روحه من بين جنبيه مايدريني؟ قال: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج بن يوسف، قال المطلب: أتعرفني أنت؟ قال: لا، قال: أنا المطلب غلام أبى لهب مصروع أصرع فى كل شهر ثلاثة أيام أولها اليوم فتركه ومضى.

وأن الحجاج انفرد يوماً من عسكره فلقى أعرابياً فقال: ياوجه العرب كيف الحجاج؟ قال: ظالم غاشم، قال: فهلا شكوته إلى عبد الملك فقال: لعنه الله أظلم منه وأغشم، فأحاط به العسكر فقال: أركبوا البدوى فأركبوه فسأل عنه فقالوا:

هو الحجاج فركض الفرس من خلفه وقال: ياحجاج! قال مالك؟ قال: السر الذى بينى وبينك لا يطلع عليه أحد، فضحك وخلاه.

ولقى الحجاج أعرابيا بفلاة فسأله عن نفسه وعن عماله وسعاته، فأخبره بكل مايكره، فقال له: أنا الحجاج قتلنى الله إن لم أقتلك، قال: فأين حق الاسترسال؟ فقال: أولى لك، ما أحسن ما تخلصت وخلى سبيله.

قال: كان أبو الحسين بن السماك يتكلم على الناس بجامع المدينة، وكان لا يحسن من العلوم شيئاً إلا ماشاء الله، وكان مطبوعاً يتكلم على مذهب الصوفية، فكتبت إليه رقعة: مايقول السادة الفقهاء فى رجل مات وخلف كذا وكذا؟ ففتحها فتأملها فقرأ ماتقول السادة الفقهاء فى رجل مات؟ فلما رآها فى الفرائض رماها من يده، وقال: أنا أتكلم على مذاهب قوم إذا ماتوا لم يخلفوا شيئاً. فعجب الحاضرون من حدة خاطره.

نصيحة الملوك

للماوردى

يشتهر الإمام أبو الحسن الماوردى عند بحاثة الفكر السياسى بكتابه الجليل (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) وتناول فيه قضية الإمامة وشروطها والخلافة وأحكامها، والوزارة وأقسامها، وإمارة الجهاد والقضاء، وأحكام الفيء والغنيمة والجزية والخراج وأحكام الإقطاع، وترتيب الدواوين، واختصاصات بيت المال وأحكام الحسبة وغير ذلك من القواعد الشرعية، مما جعل هذا الكتاب مرجعاً فريداً فى أمور السياسة والحكم. ولكن للإمام الماوردى كتاب آخر لم يأخذ حظه من الشهرة لأنه ظل مخطوطاً حتى عام ١٩٧٥ . وهو كتاب (نصيحة الملوك) الذى جمع فيه كل ما يؤدى إلى إصلاح الراعى والرعية، لأن الملوك فى رأيه أولى الناس بأن تهدى إليهم النصائح، مصداقاً لحديث رسول ﷺ «إنما الدين النصيحة، قيل لمن يارسول الله؟ قال: لله

ولرسوله ولأئمة المسلمين وجماعاتهم. ومما تناقلته أقوال الحكماء: من كتم السلطان نصيحته، والأطباء مرضه، والإخوان بثه، فقد خان نفسه.

وعند الماوردى إن نصيحة السلطان نصيحة للكافة، وفى نصيحة الكافة هداية إلى مصلحة العالم بأسره، ونظام أمور الكل بجملته، ولهذا جرت العادة فى الأنبياء أن يبعثهم الله إلى ملوك الأمم، أو إلى جماعتهم دون الواحد بعد الواحد، من أفراد رعاياها، لأن شخص الملك وحده يفى بجميع من فى مملكته، وتحت سياسته، ولأن الراعى إذا مال إلى مذهب مالت إليه الرعية، واذا زهد فى أمر زهدت فيه العامة، فكتبنا كتابنا هذا: نصيحة للملوك، وإظهاراً لمحبتهم، وإشفاقاً على أنفسهم ورعاياهم، ولأن من عمل بالنصيحة من الملوك والساسة وصل الله ملكه الأمدى بالأبدى فى دار القرار، ومحل الأبرار فى ملك لايبلى، ونعيم لا يفنى، ولذة لاتشوبها ألم، وسرور لايكدره غم، وغنى لايغشى بعده فقراً، وصحة لا يخاف معها سقماً.

وحرص الماوردى على ألا يستمد نصائحه من آرائه الخاصة، وإنما استمد مادته من أحكام القرآن الكريم، وأحاديث الرسول (ﷺ) ثم تجارب وخبرات الملوك الأولين، وأقوال الخلفاء الراشدين، والحكماء المتقدمين فى الأمم الخالية، فكان أشبه بالصياد الذى يلتقط الحكمة من أى مصدر يصادفه، أما لماذا وجه نصائحه للملوك: فلأنهم أكثر الناس أشغالاً، وأعظمهم أثقالاً وأبعدهم عن ممارسة أمورهم بأنفسهم، ومشاهدة أقاصى أعمالهم بأعينهم، وقد لا تتاح لهم فرصة مجالسة العلماء، والزهاد والواعظين والفقهاء الذين بهم تشحذ العقول، وتبصر العيون، ولأنهم أقل الناس قبولا للنصيحة إذا خالفت أهواءهم، وأقلهم حظاً من النصحاء المخلصين، ولأن أكثر من يحيطون بهم من وزرائهم

وأعوانهم وندمائهم لايكلمونهم إلا بما يوافق أهواءهم ويطابق آراءهم، مخافةً على مناصبهم، واستدراراً لمطامعهم، ولأن أكثر من يحضر مجالسهم من طلاب الدنيا والمنافع الذاتية، وشروط النصيحة عند الماوردى أن تكون خالية من الهوى والشهوات، لأن الله تعالى يقول فى محكم التنزيل: «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن». ويقول الرسول ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتى الهوى وطول الأمل». وكان السلف يقولون: آفة الرأى الهوى. وقالوا: إنما سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه فى المهالك.

* آثار الأولين:

وعن أهمية النصحاء للملوك، ينقل الماوردى عن آثار ملوك العجم قولهم لأبنائهم: «اتخذ من علمائك ونصحائك مرآة لطباعك وفعالك، كما تتخذ لصورة وجهك الحديد المجلو، فإنك إلى صلاح طباعك وأفعالك، أحوج منك إلى تحسين صورتك، والعالم الناصح أصدق وأعوز من الحديد المجلو». وجمع ذلك النبى ﷺ فى قوله: «المؤمن مرآة أخيه المؤمن» ومن نصائح الحكام والحكماء قول أردشير بن بابك، أول ملوك الفرس الساسانية، لابنه واحذر أن تكون معروفاً عند وزرائك بالسرور بالمتابعة لك على هواك، أو أن يظهر لك إيثار لمن فعل ذلك منهم، وتفضيل له على من سواه، فيلتمسوا الحظوة لموافقتك على مافيه ضياع عملك، وهلاك رعيتك، فإن ذلك من أشد الأمور مخوفاً لنصائح الأعوان، وأكثرها ضرراً على الملوك، وإنما جل حاجة الملك إلى وزرائه ليبصروه ماعسى أن يخفى عليه، والاستماع لمشورتهم وآرائهم، فإذا كان معطلاً مرفوضاً، وهوى الملك مقتدى به متبوعاً، فأهون بمنفعتهم، وأقلل بغنائهم.

وقال بعض الحكماء: لا يمنعك صغر شأن امرئ من اختيار ما رأيت من رأيه صواباً، واصطفاء مارأيت من أخلاقه كريماً، ولا تحقرن الرأى الجليل إن أتاك به الرجل الحقير، فإن اللؤلؤة النفيسة لا يستهان بها لهوان غائصها الذى استخرجها.

وكان أمير المؤمنين عمر يقول: رحم الله امرءاً أهدى إلينا مساوئنا.

ولجلال شأن النصيحة كانت حكماء العرب تقول: أخوك من نصحك، وقالوا: انصح أخاك فإن قبل، وإلا فغشه، فقيل: وكيف أغشه؟ قال: اسكت عن نصيحته، فجعلوا السكوت عن النصح عقوبة للمنصوح على ترك قبوله.

وكانت الرسل عليهم السلام تقول لأقوامهم وتكرر عليهم: (نصحت لكم) و (أنصح لكم) و (أنا لكم ناصح أمين) و (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم) فكان أهل الدين والعقل والعلم والفضل يقبلونها بالشكر بقلوبهم، ويجرونها على ألسنتهم، ويخلدون رسومها فى كتبهم ودواوينهم، ويمدحون قائل النصيحة على مر الأيام، وكان كثير من الخلفاء إذا أحسوا من أنفسهم بعجب أوتيه أو فظاظة، سألوا العلماء أن ينصحوهم ويعظوهم، فقد بلغنا عن الخليفة العباسى المنصور أنه قال لسفيان الثورى: عظنى وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين.. أرأيت إن احتبس عليك بولك فلم ينفتح دون أن تفتديه بجميع ملكك؟ قال: أفتديه بجميع ملكى! قال: فما تصنع بملك هذا قدره ؟!.

ودخل عمرو بن عبيد الزاهد على المنصور، فقال له: عظنى، فوعظه بكلام طويل افتتحه بأن قال: إن هذا الأمر لو كان دام لمن كان قبلك، لما وصل إليك، فإن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك

ببعضها، واعلم أنه واقفك وسائلك عن مثاقيل الذر من الخير والشر، وأن أمة محمد ﷺ خصماؤك يوم القيامة، فإن الله لا يرضى منك إلا بما ترضى لنفسك، وإنك لن ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك وأنه لا يرضى منك إلا بالعدل على الرعية، وأن وراء بابك نيراناً تأجج من الجور..

* أرسطو يعظ الاسكندر

وكذلك فعل الملوك الأولون، فكان الاسكندر المقدونى كثيراً ما يسأل الحكماء أن يزودوه فى سفره مايستعين به على ملكه، وقد كتب إليه أستاذه الفيلسوف أرسطو: «ياإسكندر، لاتمل إلى مايبيد، ويكون بقاؤه قليلاً، أطلب الغنى الذى لا يفنى، والحياة التى لاتتغير، والملك الذى لايضمحل». وقال: عجبت ممن استقر قلبه فى الدنيا وهى دائمة الزوال، لايعتبر بالملوك الذين شرفوا وفازوا وتأكد فخرهم، وكم عساك تعيش يا اسكندر!. وقال: «اجعل العقاب بين ناظريك، وفكر فيما وهب الله لك من النعم، لا فخر فيما يزول، ولا غنى بعد أن لا يلبث، اقنع تستغن، لاتقبل على الدنيا فإنك قليل البقاء فيها».

ويختتم الماوردى هذا الاقتباسات بقوله إنه أراد منها إسداء النصيحة والصدق فى الموعظة، وليس يجوز لمن رغب فى النصيحة أن يعرضها على هواه، بل يجب أن يعرضها وهواه جميعا على الحق، وما يوجبه الحق، فربما يكون الثقيل على الطبع، المكروه فى القلب، أحمد عاقبة، وأروح آخرة، وأوفر أجراً، وأحسن ذكراً يقول الله عز وجل: «فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً».

* فضل الملوك

وإذا كان الملوك لايتمايزون عن غيرهم من سائر الرعية، إلا أن الله عز وجل أكرمهم بالصفة التى وصف بها نفسه، فسماهم «ملوكاً» وسمى نفسه «ملكاً» فقال: (مالك يوم الدين) وقال: (فتعالى الله الملك الحق) وقال فيما وصف به ملوك البشر: (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً). وقال: (إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً). فليس أحد أولى بالفضل، ولا أجزل قسماً، ولا أرفع درجة من الملوك. إذ كان البشر مسخرين لهم، وممتهنين لخدمتهم، ومتصرفين فى أمرهم ونهيهم.

وبمقتضى هذه الفضائل التى استنبطها الإمام أبو الحسن الماوردى فى كتابه «نصائح الملوك» أخذ الله على كافة الخلق من حسن الطاعة للإمام العادل، والملك الفاضل، وصدق المؤازرة، والتعظيم له، وترك الخلاف عليه ما أطاع الله ولزم فرائضه وحدوده، فقال: (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وقال النبى ﷺ «أطيعوا الإمام ولو كان عبداً حبشياً ما أطاع الله فيكم». فهذا قليل من كثير مما أبان الله من فضائل الملوك، وعلو منازلهم، وارتفاع مراتبهم، وجلالة أقدارهم، وبعد أخطارهم، وجليل نعيم الله عليهم، فالواجب فى جميع أبواب القضايا ألا يكون أحد أشكر لله، وأحسن قياماً بأداء فرائضه وأوامره، ورعاية لما استرعى، منهم ولذا وجب عليهم إذا ذكروا نعم الله عليهم، وآلائه لديهم فى تفخيم شأنهم، وإعزاز سلطانهم وتفويضه لهم سياسة عباده، أن يخافوا عاقبة الكفران وجزاء العصيان، ومن الواجب على من يرغب فى الزيادة، ويتمنى حسن التوفيق، وحسن المثوبة، أن يدأب ويجتهد فى الشكر والطاعة، ويجتنب الكفور والمعصية، فإن جزاء

الشكور الإحسان، وجزاء الكفور العقاب والنكير، فإن الله عز وجل يقول: (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد).

*الترفع عن الدناءة

ومن نصائح الإمام الماوردى: إنه يجب على الملك أن يكون أشد الناس ترفعاً عن الدناءة، وتنزهاً عن الخساسة، وتعالياً عما يشين العرض ويفسد المروءة ويؤذن بخراب المملكة، ومايخل بجلالة المكانة، ورفع المنزلة وأن يختار من السنن أشرفها وأعلاها، ويرتاض من الأفعال بأرفعها وأسناها، ويجتنب كثيراً من الملذ المحبوب، لينال السيرة التى تشاكل رتبته، وتضاهى منزلته، وقد قال أردشير: «اعلموا أن دولتكم تؤتى من مكانين: أحدهما، غلبة بعض المخالفة لكم، والآخر فساد أدبكم» . ثم من الواجب على الملك الفاضل، والسائس العادل ألا يكون على أحد من رعيته، فى تحسين أدبه، وقمع شهواته المفسدة الضارة، أقدر منه على نفسه، فإن من عجز عن سياسة نفسه، وتقويم أخلاقها، كان خليقاً أن يكون عن تقويم غيره أعجز، ولا يكون الإنسان قادراً على نفسه مالم يقدر على تغليب العقل على الطبع، والرأى على الهوى، بل يحكم العقل على الطبع، ليختار مايدل عليه العقل على مايميل إليه الطبع، ويؤثر ما يشير إليه الرأى على مايصبو إليه الهوى، ثم يقابل بمحاسنه مساوئه، وبمحامده مذامه، حتى يعود نفسه، الأمور الفاضلة. ويكتسب الخلال التى تشاكل حاله.

وكانت العرب تقول: الخير عادة .. والشر لجاجة، وتقول: العادة أملك بالأرب. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فلا أحد أحق باختيار المحامد فى رأى الماوردى من الملوك، لأنه لايكون مؤدياً حق جلالته، وعارفاً

بفضل منزلته، حتى يترك كثيراً من شهوات النفس، ولذات البدن، في جنب الفضائل التي يجب عليه حيازتها: فيختار الشكر على الكفر، والتدين على التهتك، والعلم على الجهل، والعقل على الحمق، والشجاعة على الجبن، والجود على البخل، والصبر على الجزع، والحمد على الذم، والحلم على الطيش، والرزانة على الخفة، والصدق على الكذب، والتواضع على التكبر، والعدل على الجور، والصواب على الخطأ، والحزم على التهور، فإن لكل شيء من المذام ثمرة مذمومة، ولكل شيء من المحامد عاقبة محمودة، فيجب على من أحب الخير، أن لايفعل إلا الخير، ومن كره الشر أن يتجنب الشر.

* **القول والعقل**

ويقتبس الماوردي من حكم الأقدمين ماجاء في كتاب «سياسة الملوك»: ليكن عملك أحسن من قولك، فإن حسن القول أغرى به، وحسن العمل أفراد البغية وقال بعض ملوك الهند لابنه: «لا يريبك رأيك، إنك إذا أحسنت القول دون الفعل فقد أبلغت السامعين منك دون أن يصدق قولك فعلك، ويحقق سرك علانيتك». وقال ملك الهند الذي يدعى (البد): لن يبلغ ألف رجل من إصلاح رجل واحد - بحسن القول دون الفعل - مايبلغ رجل واحد - من إصلاح ألف رجل بحسن الفعل».

وقد كان أمير المؤمنين على رضى الله عنه يتعوذ من ألسنة تصف، وقلوب تعزف، وأعمال تخالف، وقد افتتح بهذه المعاني سابور بن أردشير الملك عهده إلى ابنه حيث قال: أما بعد، فإنك قد وليت أمراً لايفوقه أمر شيء من أمور الدنيا، وبلغت غاية ليس وراءها مكان لأحد من الناس، فاسم نفسك إلى ما يلائم الخطر الذي أصبحت عليه، من

خصال الفضل، وتمسك من العدل بعصمة، يصل لك ما أنت فيه من غضارة العيش وزهرته بالنعيم الذى لازوال له، ولا انقلاب، وتبقى لك حسن الأحدوثة، إذ ودعت ما أنت بسبيله فإنك موروث ما أنت فيه، ومسلو به وخارج منه إلى ثواب ماتقدم لنفسك أو عقابه.

وقد أوجز عمرو بن عبيد حيث قال للخليفة المنصور: إن الله لم يرض أن يكون أحد من الناس فوقك، فلا ترض أن يكون أحد أشكر له منك.

*غدر الزمان

وينصح الماوردى الملوك بعدم الاطمئنان لغدر الزمان، إذ لاينبغى للملك الممتع بطول المدة فى ملكه، أن يغتر بمساعدة الدولة له، وينسى لطول الإملاء والإمهال حوادث الزمان، ويغفل تغير الأيام، حتى يغمض عينه عن ملاحظة الغير، فإن ذلك ربما يكون من أعظم حجج الله عليه، وأبلغ محنة له، وقد ذكر الله ذلك كله فى كتابه إذ يقول فى الكفار: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) . وليعلم أن البقاء منها إلى فناء، والإقامة فيها إلى ارتحال، والصحة إلى سقم، والسلامة إلى بلاء، والسرور مشوب بالحزن، والصفو ممازج للكفر، وإن كان كثير من الناس لعشقه بما يهواه، يرى صفوها ولايرى كدرها، ويبصر سرورها ويعمى عن شرورها، ويطعم ملاذها ولا يحس بآلامها، كالمسموم الذى يجد حلاوة العسل فلا يشعر بمرارة السم، فيكون فى حلاوته هلاكه، وقديماً قيل: «حبك الشئ يعمى ويصم» . ثم ليعلم أن بلوغ الأمانى وإدراك أطراف الآمال التى هى غاية طلبته ونهاية أمنيته: سم قاتل،

وسيف مستأصل وإيذان بالإدبار، وقرب بالبوار، وقد بين الله ذلك فى كتابه حيث قال: (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) وقصة قارون أوضح مثل على عاقبة الغرور. وقال أمير المؤمنين على: كم مستدرج بالإحسان، وكم مغرور بالستر عليه، وكم مفتون بحسن القول فيه، ما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له، لأن الله يقول: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم). وقد عرف ذلك الحكماء، فقال بعضهم حين سئل عن حاله: كيف حال من يفنى ببقائه؟ ويسقم بسلامته، ويؤتى من مأمنه. وقالت العرب: «من مأمنه يؤتى الحذر». وقديماً قالوا: «ما استجمع لأحد أمله إلا أسرع فى تفريقه أجله»، وقيل: «يا ابن آدم لو رأيت الأجل ومسيره، بغضت الأمل وغروره»، وقد ذكر كثير من هذه المعانى أردشير فى أول فصل من عهده فقال: «إن صيغ الملوك غير صيغ الرعية، فالملك بطبعه العز والأمن والسرور والقدرة على طباع الأنفة، والجرأة والبطر والعبث، ثم إنه كلما ازداد فى العمر ازداد تنفساً، وفى الملك سلامة، زاده فى هذه الطبائع الأربع حتى يسلمه إلى سكر السلطان الذى هو أشد من سكر الشراب، فينسى النكبات والعثرات، فيرسل يده ولسانه بالقول والفعل».

الخلفاء عيون النصيحة:

وكان خلفاؤنا الراشدون رضوان الله عليهم يحبون النصيحة، فهم ينصحون الرعية، ويطلبون من الرعية أن تقدم لهم النصح، عملا بسنة رسول الله ﷺ: النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. وعملا بهذا الأدب النبوى كان الصديق أبو بكر يقول: لا خير فيكم إذا لم

تقولها.. ولا خير فينا إذا لم نسمعها، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، على جلالة قدره وعظمة شخصيته، يتقبل النصيحة من أبسط الناس، وكلنا يعرف قصة المرأة التى راجعته وهو يخطب الناس فى مسألة المهور، فقال قولته الخالدة: أصابت امرأة!!!).

كان عمر رضى الله عنه من أشد خلق الله خشية لله، ولذلك كان من أشدهم حبا للنصيحة حتى يتجنب الزلل، ويتحاشى الغرور والزهو، فلا يتعالى على موعظة، ولا يستكبر على نصيحة، حتى يكون قدوة للناس فى الدقة والأمانة. وكان يقول: «إن الناس لا يزالون مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم.. وإن الرعية مؤدِّية إلى الإمام، ما أدى الإمام إلى الله، فإذا رتع الإمام رتعوا». لقد لمس الناس عدل عمر وبساطته وحد به عليهم ما جعلهم يحبونه رغم شدته، فهى شدة الأب والحنون على أولاده كى يراهم فى القالب الذى يحبه الله ورسوله. ومن أقواله المأثورة عندما تولى الخلافة : «والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ له الحق، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه..» وكان يتعقب الولاة والعمال حتى لا يبطشوا بالناس، ويحث الرعية على أن تأبى الظلم والبطش فيقول للناس: «إنى لم أستعمل عليكم عمالا ليضربوا أبشاركم، وليشتموا أعراضكم. ويأخذوا أموالكم، ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتب ربكم وسنة نبيكم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علىّ ليرفعها إلىّ حتى أقصّه منه»، وكتب إلى أمراء الأجناد: «لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تحرموهم فتكفروهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم».

وكان لهذه المبادئ التى أرساها الخليفة الراشد أثرها فى نفوس الناس، أمرائهم وعامتهم، وتوالت عليه الكتب والرسائل من شتى

الأمصار تتجاوب مع نزعته المحبة للنصيحة. ويروى فى ذلك أن بعث إليه أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل يقولان: «سلام عليك، أما بعد: فإنا عهدناك وشأن نفسك لك مهمٌ (يقصدان مرحلة ما قبل الخلافة) فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع والصديق والعدو، ولكل حصة من العدل، فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر، وإنا نحذرك يوماً تصفر فيه الوجوه، وتجب له القلوب، وتنقطع فيه الحجج بحجة ملكٍ قهرهم بجبروته، والخلق وآخرون له، يرجون رحمته ويخافون عقابه، وإنا كنا نحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة، وإنا نعوذ بالله أن ننزل كتابنا منك سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا، وإنما كتبنا به نصيحة لك والسلام.

ونزلت نصيحة الصحابيين الجليلين بردا وسلاما على قلب عمر. فكتب إليهما رضى الله عنه: من عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل، سلام الله عليكما، أما بعد:

«فإنكما كتبتما إلىّ تذكرانى إنكما عهدتمانى وأمر نفسى إلىّ، وإنى أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة، وذكر كلاما ثم قال: فإنه لا حول ولا قوة عند ذلك لعمر إلا بالله، وذكرتما أنكما كتبتما نصيحة لى، وقد صدقتما، فلا تدعا الكتابة إلىّ، فإن لا غناء لى عنكما، والسلام عليكما.

وكذلك فعل سهيل بن عمرو الذى فاوض النبى ﷺ يوم الحديبية وهو يومئذ على دين آبائه، ثم أسلم يوم الفتح وسكن المدينة وتوفى مجاهدا بالشام سنة ١٨ هـ وكان سهيل من أوائل المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وشهد بدرا ثم شهد القادسية مع سعد بن أبى وقاص. وقد بعث وهو بالشام إلى الخليفة بهذه النصيحة:

«يا عمر.. إنه من ابتلى بالسلطان فقد ابتلى ببلاء عظيم، وأي بلاءٍ يا عمر أشدُّ من بلاء سلّط فيه لسان الوالى وفعله، فإن هو ذكر لم يذكر، وإن هو غفل أُخذ بغفلته، فإن أذنب أسلمته ذنوبه إلى الموت الذى ليس منه فوت، وليس منه مرد، ولا بعده مستعتب.

حق النصيحة

لم يكن عمر فى حاجة إلى من يذكره بالموت. فقد كانت الآخرة نصب عينيه، وحساب الله لا يفارق ضميره، والخوف من العاقبة شغله الشاغل، ولكنها النصيحة هى ترضت على الناس أن يذكروا الخليفة بكل ذلك حرصا منهم عليه، وحباً فيه. وإليك هذا النموذج من النصائح التى كان المسلمون يقدمونها لعمر. وهى من الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى، وكان شريفا فى الجاهلية والإسلام وأسلم يوم فتح مكة وخرج فى أيام عمر بأهله وماله إلى الشام مجاهدا. ومن هناك بعث إلى عمر بهذه النصيحة:

«إن حقا على كل مسلم النصيحة لك يا عمر، والاجتهاد فى أداء حقك، ولهم عليك مثل الذى لك عليهم لما أفضى الله عز وجل إليك من هذا الأمر العظيم إذ توليته من أمة محمد ﷺ، أسودها وأحمرها، عليك بتقوى الله عز وجل فى سريرتك وعلانيتك، والاعتصام بما شرع الله، واعلم أن كل راع مسئول عن رعيته، وكل مؤتمن مسئول عن أمانته، والمحسن إن أخطأ بالإحسان خير ممن أحسن إليه، فاعتصم بما تعرف من أمر الله، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله»

وكان رد الخليفة العظيم على الصحابيين الجليلين: هداكما الله عز وجل، وأعانكما وصحبكما، وعليكما بتقوى الله فى أمركما.

الوزراء والكتاب

الوزير فى تاريخ الدولة الإسلامية له مكانة كبيرة فهو أكبر منصب بعد الخليفة وعليه يقع عبء إدارة الدولة، وتدبير شئونها، وتنمية مواردها، ومع ذلك لم يكن منصب الوزير مأموناً، بل كان محفوفاً بالمخاطر، فالعيون مصوبة إليه، والطامعون يتربصون به ويدبرون له المكائد، والخلفاء يجعلون من الوزير كبش فداء لأخطائهم وفسادهم، فينكلون به فى أقرب فرصة ولأوهى سبب، ويصادرون أمواله ويضعونه فى السجن ثم يقتلونه، ونادراً ماكان الوزير يموت ميتة طبيعية، حتى أن وزراء الدولة العباسية، على مدى خمسة قرون، لقوا حتفهم غيلة، إلا فيما ندر وفى حالات معدودة كان الموت فيها أسبق من سيف الخليفة فى الإطاحة برقبة الوزير.

وكان حظ الوزراء من الشهرة قليلا بالقياس إلى شهرة الخلفاء، ويستثنى من ذلك وزراء عظام كالبرامكة الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وسارت بذكرهم الركبان، ولهجت ألسنة الشعراء بأفضالهم، ومع ذلك لم

يسلم البرامكة من سيف الخليفة هارون الرشيد فأطاح بهم من حالق العز إلى مهاوى الهلاك لأن الرشيد لم يقبل منافساً له فى المجد. وكان مصير البرامكة هو نفس مصير الوزراء فى الدولة العباسية من بدايتها إلى نهايتها.. وشرب الجميع من كأس الردى. وبرغم هذا المصير المفجع فقد ظل منصب الوزارة مطمحاً لكل نهم باحث عن المال والسلطان والنفوذ.. وتلك محنة الإنسان الذى لايتعلم من الرؤوس الطائرة، ويدفعه الجشع إلى ارتياد هذا الطريق الوعر.

الكتب التى صدرت عن تاريخ الوزراء فى الدول الإسلامية قليلة، وهو أمر مفهوم فى نظم كانت السلطة فيها مركزة فى الخلفاء، ولم يجد «الوزراء» عند كتاب التاريخ من يحفل بهم ويخصهم بدراسات مستقلة ليعطينا صورة تفصيلية عن حياة هؤلاء القادة الذين تحملوا مسئولية الإدارة بالنيابة عن الخلفاء، والمؤرخون القدامى من أمثال الطبرى وابن الأثير والمسعودى عرضوا لنا نتفاً من تاريخ الوزراء من خلال حديثهم عن الدول والخلفاء دون أن يتوقفوا عند ماجرى للأعيان الذين شغلوا هذا المنصب، وأول من فكر فى سد هذا النقص هو محمد بن عبدوس الجهشيارى فوضع كتابه الشهير «الوزراء والكتاب» وأرخ فيه لهؤلاء المشاهير علماً بأن الوزير كان يحمل اسم «الكاتب» قبل ظهور الدولة العباسية. وأول من حمل هذا اللقب هو أول وزراء الدولة أبو سلمة بن الخلال الذى استوزره الخليفة السفاح فور نشوء الدولة.

وقد بقى كتاب «الوزراء والكتاب» طى النسيان والإهمال إلى أن توفر على نشره ثلاثة من كبار المحققين فى مصر هم الأساتذة: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى، فعكفوا على تهذيبه وتحقيقه وأعدوا له الهوامش والفهارس حتى ظهر إلى الوجود فى طبعته

الأولى عام ١٩٣٨ ، وتعهدت بإخراجه وطبعه مكتبة السيد مصطفى البابى الحلبى التى يرجع لها الفضل فى نشر كتب التراث العربى فيسرت للباحثين والدارسين نعمة الاطلاع على كنوز الثقافة العربية وقدم المحققون الثلاثة الطبعة الأولى من الكتاب بمعلومات قيمة عن المؤلف. فهو أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفى المعروف بالجهشيارى، مؤرخ قديم من طبقة ابن جرير الطبرى «المتوفى عام ٣١٠ هـ» والمسعودى «المتوفى عام ٣٤٥ هـ» ، وهو أحد الأفاضل الثقات، وقد أكثر المؤرخون من ذكره عند النقل من كتابه، لأن الذى وصل إلينا من الخبر عنه قليل، مبعثر فى كتب التاريخ وقد نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى بغداد وهى إذ ذاك حاضرة الثقافة العربية، وانخرط فى سلك الكتاب الذين كان يزخر بهم قصر الخلافة، إلى جانب أبيه الذى كان يعمل حاجباً للوزير على بن عيسى، وقد ورث صاحبنا منصب الحجابة عن أبيه، وشاء حظه أن يعمل سنة ٣٠٦ هـ حاجبا لوزير مشهور بسوء الأدب، وبذاءة اللسان، والإسفاف فى القول. ذلك هو الوزير حامد بن العباس الذى قال عنه المؤرخ التنوخى «وما رأينا ولا سمعنا برئيس أسفه لسانا من حامد بن العباس»، وكان ابن عبدوس يرى مايصدر عن الوزير من بذاءة لاتتفق مع جلال منصبه، فيتنحى عنه ويقول: «لعن الله زمانا صرت أنت فيه وزيراً».

فى المطبخ:

عاش الجهشيارى فى المطبخ الإدارى للدولة العباسية على زمن الخليفة المقتدر، وأتاح له ذلك أن يكون على بينة من نظام الإدارة وتولية الوزراء والعمال والولاة، ويلمس عن قرب فساد النظام الحاكم

حيث النساء وغلمان الترك يتسلطون على مقدرات الدولة، والوزراء يطلقون أيديهم فى ظلم الرعية وجباية الأموال بالباطل، ثم فشل هؤلاء الوزراء فى إصلاح حال الدولة لأن هدف الوزراء لم يكن وقف تيار الفساد، وإنما الاغتراف من أموال بقدر ماتسعفهم ذممهم الخربة، وقد أدى هذا الخلل إلى ارتباك الجهاز الإدارى وعدم الاستقرار فى منصب الوزارة، حتى أن عهد المقتدر الذى بلغ ٢٥ عاماً توالى عليه ٢٤ وزيراً. وكان الوزير الجديد يبدأ عهده بمحاسبة من سبقه ومصادرة الأموال التى سرقها والتنكيل به، ثم لا يلبث الوزير الجديد أن يجرفه تيار الفساد، فيعمل صنيع سلفه فيختزن الأموال.. إلى أن تدور الدورة ويقع فى الفخ فيفقد منصبه وأمواله وحياته.. وبرغم هذه النهايات المأساوية، كان طلاب الوزارة يتكالبون على أصحاب النفوذ فى قصر الخلافة، ويقدمون لهم الرشاوى حتى يظفروا بالمنصب لما فيه من سحر وفرصة لاكتناز الأموال.

وقد نال الجهشيارى من آثام هذه النظم السياسية والإدارية والمالية مانال الكثيرين من موظفى الدولة البارزين، من التضييق والاعتقال والارهاق، ومصادرة الأموال لأنه كان قد أثرى كما يثرى كبار الموظفين الرؤساء فى ذلك العهد، ولأن أباه من قبله كان موظفاً كبيراً، فكان من الطبيعى أن يكون له خصوم يكيدون له، وينتهزون الفرص للنيل منه، فأقيل من عمله وصودرت أمواله أكثر من مرة.

وكان وجود الجهشيارى فى هذا الموقع المرموق، مشجعاً له على أن يضع كتابه «الوزراء والكتاب» وتحدث فيه عن تاريخ كتابة الإنشاء منذ تأسيس الدولة الإسلامية فى عهد النبى ﷺ وتاريخ الوزارة والوزراء فى الإسلام إلى نهاية القرن الثالث الهجرى، والتاريخ الحقيقى للخلفاء، وما

اشتملت عليه حياة القصور من مظاهر الترف واللهو التى يحجبها عن أعين الرعية حجاب كثيف، كما أنه ألقى الضوء على مظاهر الحضارة الفارسية التى اقتبسها المسلمون من الفرس وخاصة فى تنظيم الإدارة. وجباية الخراج، وتدوين الدواوين، وضروب السياسة التى أخذ بها الخلفاء العباسيون فى عصر القوة الذى يبدأ بالسفاح وينتهى بالمعتصم أو ابنه الواثق.

نشأة الكتابة:

وقد استهل الجهشيارى كتابه بالحديث عن بداية الكتابة. فقال إن سيدنا إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم بعد آدم عليه السلام، أما أول من كتب بالعربية فهو سيدنا إسماعيل «الذبيح» ثم يسرد أسماء الكتاب الذين ثبتوا على الكتابة لرسول الله ﷺ منهم: على بن أبى طالب وعثمان بن عفان، كانا يكتبان الوحى، فإن غابا كتبه أُبّى بن كعب وزيد بن ثابت. وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان يكتبان بين يديه حوائجه. وكان معيقب بن أبى فاطمة يكتب مغانم رسول الله ﷺ وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتاب النبى ﷺ إذا غاب عن عمله فغلب عليه اسم الكاتب، وكان يضع عنده خاتمه، وقال له: «الزمنى ، وأذكرنى بكل شىء لثالثة، فكان لا يأتى على مال ولا طعام ثلاثة أيام إلا أذكره، فلا يبيت رسول الله ﷺ وعنده شئ منه.

ويستطرد الجهشيارى فى ذكر أيام الخلفاء الراشدين ثم خلفاء بنى أمية إلى أن انتقل الملك منهم إلى بنى العباس. وهو عند كل خليفة يسرد أسماء كتابه ومعاونيه أما أول من حمل لقب «الوزير» فهو أبو سلمة

ابن الخلال الذى مهد السبيل إلى السفاح ليتولى الخلافة، وسموه «وزير آل محمد» ولكن يبدو أن أبا سلمة وهو فارسي حين وجد مصير الدولة الجديدة فى يده بعد سقوط دولة بنى أمية، أراد أن يجعل الخلافة للعلويين بدلاً من العباسيين، وعلم السفاح بما دبره أبو سلمة، فأسرها فى نفسه، فلما استتب له الأمر طلب من أبى مسلم الخراسانى أن يقتله، حتى لايحمل وزر دمه أمام الفرس الذين قامت الدولة على أكتافهم، واستجاب أبو مسلم لطلب السفاح وقتل أبا سلمة، وهذا مصير أول وزير فى الدولة العباسية ويروى المؤلف بداية اللقاء بين الخليفة السفاح وخالد ابن برمك حين ذهب لمبايعته فرأى فصاحته حتى توهم أنه عربى، فقال له: فمن الرجل؟ فقال له: مولاك خالد بن برمك وقص عليه تاريخ أسرته ووقوفها إلى جانب العهد الجديد، فأعجب به السفاح، وأقره على ماكان يتقلد من الغنائم، وجعل إليه بعد ذلك ديوان الخراج، وديوان الجند، وشغل منصب الوزارة وقربه منه حتى أنه دفع ابنته «ريطة» إلى خالد بن برمك كى ترضعها زوجته مع بنت لها تدعى «أم يحيى»، وأرضعت زوجة السفاح «أم يحيى» فقال السفاح لخالد: لم ترض يابن برمك حتى استعبدتنى! فوجم خالد وقال: أنا عبد أمير المؤمنين، فقال له: كانت ابنتى ريطة وابنتك أم يحيى فى فراش واحد، فتكشفتا، فرددت عليهما اللحاف فقبل يده وشكر له، ولم يزل على منزلته عنده إلى أن توفى السفاح، فلما تولى المنصور الخلافة صرف خالدا عن الديوان وقلده أبا أيوب الموريانى وكان أثيراً عند المنصور، وقلد خالداً فارس فأقام بها خالد سنتين، وأبو أيوب يدبر له المكائد، ويحض المنصور على كرهه ويسعى به ليسقط من عينه لأنه كان يحقد عليه مايمتاز به من فضل، ويتخوف أن يرده المنصور إلى الديوان

الذى كان يتقلده، فلما كثر ذلك على أبى جعفر المنصور، صرف خالدا عن فارس ونكبه، وألزمه ثلاثة آلاف آلاف درهم، ولم يكن عنده إلا سبع مائة ألف درهم فقط، فلم يقبل منه وأمر بمطالبته بالمال فأسعفه صالح صاحب المصلى بخمسين ألف دينار، وأسعفه مبارك التركى بألف ألف درهم، ووجهت الخيزران بجوهر قيمته ألف ألف درهم، ومائتا ألف درهم، رعاية للرضاع بين الفضل ابنه وبين هارون ابنها. واتصل ذلك بأبى جعفر فتحقق عنده قوله أنه لايملك إلا ماحكى فصفح له عن المال، فشق ذلك على أبى أيوب، وأحضر بعض الجهابذة ودفع إليه مالاً، وأمره أن يعترف أنه لخالد، ودس إلى أبى جعفر من سعى بالمال، فأحضر الجهبذ، فسأل عن المال فاعترف به، فأحضر خالداً فسأله عن ذلك، فحلف بالله إنه لم يجمع مالاً قط، ولا ذخره ولا يعرف هذا الجهبذ، ودعا إلى كشف الحال، فتركه أبو جعفر بحضرته، وأحضر النصرانى، فقال له: أتعرف خالداً إن رأيته؟ قال: نعم ياأمير المؤمنين، أعرفه إن رأيته فالتفت إلى خالد وقال: قد أظهر الله براءتك، وهذا مال أصبناه بسببك، ثم قال للنصرانى: هذا الجالس خالد، فكيف لم تعرفه؟ قال: الأمان ياأمير المؤمنين، وأخبره الخبر، فكان لايقبل من أبى أيوب بعد ذلك شيئاًفى خالد.

صالح المسكين:

ومع ذلك فإن أبا أيوب الموريانى لم يسلك سبيل الرشد والعدل حين تولى منصب الوزارة، وسار على نفس النهج الذى سار فيه كافة الوزراء من حيث الجشع والطمع والاستحواذ على الأموال بالخديعة والغش فدفع حياته ثمناً لانحرافه، ولم يصفح عنه المنصور عندما ثبتت عليه تهمة

السرقة. وكانت نكبة الموريانى إحدى النكبات التى منى بها الوزراء فى العصر العباسي. وقد روى الجهشيارى القصة فيما يلى:

كان المنصور يحب ابنا له اسمه «صالح» ويرق له، وكان أقطع أولاده جميعاً إقطاعات واسعة ماعداه. وكان يقول: ابنى هذا المسكين لاشيء له، فلقب بصالح المسكين فقال له أبو أيوب. يا أمير المؤمنين، قد أصبت ضيعة بالقرب من الأهواز، وتشرب من دجلة، وتغيض فيها، وهى بلد واسع، وقد دثرت رسومها، وانطمست أنهارها، فإن أقطعته إياها، وأطلقت له ثلاث مائة ألف درهم نستخرجها له، فلا تلبث إلا يسيرا حتى تغل جملة وافرة. فأقطع المنصور صالحا تلك الضيعة، وأمر له بالمال، فأخذه أبو أيوب، فأدى صدراً من خسارته فى الطعام، وجاءت السنة، فحمل أبو أيوب عشرين ألف درهم إلى أبى جعفر، وقال: هذه غلة الضيعة، فسر المنصور بذلك وأمر أن يتخذ لصالح بيت مال.

وتطوع بعض الخبثاء أعداء أبى أيوب فذهبوا إلى المنصور، وكشفوا عن حقيقة الضيعة، وكيف أن الموريانى خدعه حين أوهمه أنه اشترى الضيعة بينما أخذ المال لنفسه، وغره من هذه الناحية. فعزم أبو جعفر على الخروج بنفسه إلى الناحية ليعاينها: فلما تجهز للشخوص، كتب أبو أيوب إلى وكلائه أن يبنوا على دجلة فى طريق الضيعة، على طريق أبى جعفر، قرى من اللبن والقصب، وأن يغرسوا نخلا وسدراً وكل ما تهيأ أن يحسن به، ويرى ظاهره، ليراها أبو جعفر عامرة الظاهر فلما فعلوا ذلك وشخص أبو جعفر، فرأى الموضع، وقد كان أبو أيوب عند قريه منها أرسل من تلاعب فى مصادر المياه حتى فاضت على الضيعة فغرقاها، ثم غاض إلى دجلة، فأرسل أبو جعفر من سكر الماء: وأعاده إلى جهته، وأقام أربعين يوما ينتظر جفاف الأرض، ثم ركب

حتى وقف على الضيعة، وتبين كذب أبى أيوب، وانصرف ولم يقل شيئاً، إلى أن عاد إلى بغداد، فأوقع به.

وكان أبو جعفر مدة مقامه بالأهواز منتظراً لجفاف أرض الضيعة اشتهى سمكا طريا، قال له أبو أيوب: يا أمير المؤمنين، أنت تعلم أنى أهوازى سمكى، ولنا عجائز يحسن صنعة السمك، فإن رأيت أن تأذن لى فأهيئه لك، فأظهر أبو جعفر التقبل لذلك من قوله، وأذن له فى اتخاذه، فمضى لذلك قال الربيع فنهض أبو جعفر عن مجلسه، ودعانى، فقال لى: يا ربيع، أصبب على الماء حتى أغسل وجهى، فبينا أنا أصب عليه، إذا رسل أبى أيوب قد دخلوا عليه بشيء كثير من السلال، فيها ضروب من خبز الماء والرقاق وخبز الأرز وصنوف السمك، قد اتخذ ضروباً من الصنعة الحارة والباردة، فقلت له: أنت يا أمير المؤمنين تعلم أنى غير مستبطىء لأبى أيوب، وإنه منى لعلى صداقة ومودة، ولكن أمير المؤمنين آثر عندى من نفسى، وقد علم أبو أيوب ما يريده أمير المؤمنين به، فهل يأمن أمير المؤمنين أن يكون قد دس له فى هذا الطعام شيئاً؟ فقال لى: بارك الله عليك يا ربيع، وأحسن جزاءك إنه ما دخل رأسى ما يأتى من عند أبى أيوب من الألطاف شيء منذ كذا وكذا من الدهر، فلا يسمعن منك هذا بعد، ودعا بغير ذلك الطعام فأكل منه، وانصرف إلى بغداد، وأظهر السخط على أبى أيوب ثم استدعاه وقال له: يا خوزى، أكنت آمنا من أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك فيكون جزاؤك فى العاجل إراقة دمك.. واستباحة نعمتك، وفى الآجل حلول دار الفاسقين ومأوى الظالمين الناكثين فقال ياأمير المؤمنين إن للتهم فلتات ترجع بالندم ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل السياسة، وشرف القرابة، فأقلنى، قال: لا يسعنى مع

عظيم جرمك، وجليل ذنبك، إقالتك، ولا العفو عنك، لأنك اقترفت الموبق ومالا يسع معه عفو، وحبسه وحبس أخاه خالداً وبنى أخيه وهم: مسعود وسعيد ومخلد ومحمد، ولم يكن لمحمد حظ من أمرهم فقال خالد لبنيه: أما أنتم فقد أخذتم بحظ من الدنيا، وهذا البائس لا ذنب له، ولم يكن له حظ، فقال له مخلد ـ وكان ينظر فى النجوم: لابد أن نقتل كلنا، فإن كان محمد ابنك، فلا تأمن من قتله، وإن لم يكن ابنك فليس عليه بأس. ثم طولبوا بالأموال وعذبوا وضيق عليهم فطلب كل من كان لهم عنده شئ فأخذ وضغط أبو أيوب بالمطالبة بالمال، فمات هو وأخوه فى أول سنة أربع وخمسين ومائة، وأمر المنصور بقتل بنى أخيه، فقتلوا فقال بعض الشعراء أبياتا منها:

فاتق الله وأرض بالقصد حظا

وتباعد عن موبقات الذنوب

قد رأيت الذى أذلت ونـــالت

وقعة الدهـر من أبي أيــوب

القميص والخاتم

وهناك قصة أخرى عن أسباب نكبة أبى أيوب رواها الجهشيارى على النحو التالى:

الناس يكثرون فى سبب قتل أبى أيوب، والذى عندنا: أن المنصور لما كان مستتراً بالأهواز قبل أن يتولى الخلافة نزل على بعض الدهاقين، فاستتر عنده، فأكرمه الدهقان بجميع ما يقدر عليه، حتى أخدمه ابنته، وكانت فى غاية الجمال. فقال له أبو جعفر: لست أستحل

استخدامها والخلوة بها وهى جارية حرة، فزوجنيها، فزوجه إياها، فعلقت منه وأراد أبو جعفر الخروج إلى البصرة فودعهم، ودفع إلى الجارية قميصه وخاتمه، وقال: إن ولدت فاحتفظى بولدك، فمتى سمعت أنه قد قام فى الناس رجل يقال له: عبدالله بن محمد، يكنى أبا جعفر، فصيرى إليه بولدك، وبهذا القميص والخاتم، فإنه يعرف حقك، ويحسن الصنع إليك، وفارقهم فولدت ابناً، ونشأ الغلام وترعرع فكان يلعب مع أترابه، وملك أبو جعفر، فعير الغلام أترابه بأنه لا يعرف له أب، فدخل إلى أمه حزيناً كئيبا، فسألته عن حاله، فذكر لها ما قال أترابه، فقالت: بلى، والله إن لك أباً فوق الناس! قال لها: ومن هو؟ قالت: القائم بالملك، قال: فهذا أبى وأنا على هذه الحال! هل من شيء يعرفنى به؟ فأخرجت القميص والخاتم، وشخص الفتى، فصار إلى الربيع، فقال له: نصيحة، قال : هاتها، قال : لا أقولها إلا لأمير المؤمنين، فأعلم المنصور الخبر، فأدخله إليه، فقال: هات نصيحتك، فقال أخلنى فنحن من عنده وبقى الربيع فقال هات قال: لا، إلا أن يتنحى، فنحاه، وقال: هات، قال: أنا ابنك، قال: ماعلامة ذلك؟ فأخرج القميص والخاتم فعرفهما المنصور، وقال له: مامنعك أن تقول هذا ظاهرا، قال: خفت أن تجحد، فتكون سبة آخر الدهر. فضمه إليه وقبله، وقال: أنت الآن ابنى حقاً، ودعا الموريانى، فقال: يكون هذا عندك، وماكنت تفعله بولدى لو كان لى عندك فافعله به. وتقدم إلى الربيع فى أن يسقط الإذن عنه، وأمره بالبكور إليه فى كل يوم والرواح، إلى أن يظهر أمره، فإن له فيه تدبيراً. فضمه الموريانى إليه، وأخلى له منزلاً. وأوسع له من كل شيء، فكان يغدو ويروح إلى المنصور، وخص به جدا. وكان الفتى فى غاية من العقل والكمال، وكان المنصور يخلو معه،

فيسأله الموريانى عما يجرى بينهما، فلا يخبره، فيقول له: إن أمير المؤمنين لايكتمنى شيئاً، فيقول له: فما حاجتك إلى ماعندى إذن! فحسده الموريانى، واستوحش منه، وثقل عليه مكانه فأطعمه سما فمات، وصار إلى المنصور، فأعلمه أنه مات فجأة، ثم ولى، فقال المنصور: قتلته! قتلنى الله إن لم أقتلك به! فلم يلبث بعده أن فعل به ما فعل.

ولما غضب أبو جعفر على أبى أيوب وحبسه، ذكر صالح بن سليمان أنه سيقتله وجميع أسبابه، لأنه سمعه يتحدث أن ملكا من الملوك: كان يساير وزيرا له، فضربت دابة الوزير رجل الملك، فغضب، وأمر بقطع رجل الوزير فقطعت، ثم ندم، فأمر بمعالجته حتى برأ، ثم قال الملك فى نفسه: هذا لايحبنى أبداً، وقد قطعت رجله فقتله، ثم قال: وأهل هذا الوزير لايحبوننى أبداً، وقد قتلته، فقتلهم جميعاً. فعلمت أنه سيفعل ذلك فى الموريانى ففعله، وما عدا ظنى.

المستطرف للأبشيهى

شهدت مصر فى عصر سلاطين المماليك طفرة ثقافية هائلة، ونهضة علمية وأدبية وفنية قام بها علماء وأدباء ومؤرخون يجلون عن الحصر، ولم تحدث هذه الحركة الثقافية بين عشية وضحاها.. ولكن سبقها انتشار المدارس فى القاهرة والاسكندرية والمدن الكبرى بعد أن استقلت المدرسة عن المسجد، وأصبح لها مبنى خاص يرتاده طلاب العلم فيجدون بغيتهم على أيدى العلماء، حتى قال «السيوطى» أنه تلقى العلم عن ستمائة عالم، وقال السخاوى إنه أخذ العلم عن أربعمائة نفس، وكان فى كل مدرسة خزانة للكتب تحوى كل فروع العلم والفقه والأدب يمهل منها الطالب حسب ميوله، وكان السلاطين والأمراء والأثرياء يتنافسون على بناء المدارس تقربا إلى الله، وتشجيعا للعلم والمتعلمين ويقدمون للتلاميذ الغذاء والكساء والدواء فضلاً عن المكافئات الشهرية فكان من الطبيعى أن تفرز هذه الحركة التعليمية الشاملة أجيالاً من العلماء والمتخصصين فى كل فن من فنون الثقافة.

ومن معالم هذه النهضة الثقافية ظهور «الموسوعات» وهو نوع من التأليف يقوم على جمع المعلومات المختلفة «والحقائق المتناثرة» والنصوص المبعثرة فى بطون الكتب ثم ترتيبها وتنسيقها وتوثيقها فى إطار منسجم، فتبدو كالعقد الذى يجمع حبات اللؤلؤ فى خيط واحد. ولعل هذا هو أصل تعبير (التأليف) الذى تغير مفهومه فى عصرنا وأصبح يعنى الإبداع والابتكار، ومع ذلك فإن التأليف بمعناه الاصطلاحى لا يقل روعة عن الابتكار لأنه يتطلب من صاحبه جهدا مضنياً فى التنقيب عن مادته فى بطون الكتب ليقطف أطايبها ثم يؤلف بينها ليقدمها إلى طالب العلم غذاء شهيا وزادا نافعا.. ثم أن هذا النوع من الصنعة الادبية يتطلب من صاحبه أن يكون ذا نزعة عقلية موسوعية، وخبرة فنية أشبه بخبرة الصائغ الذى يميز بين المعدن الثمين والمعدن الرخيص، فيأخذ هذا وينأى عن ذاك ليقدم لنا فى النهاية زبدة أفكار الأقدمين، وخلاصة ما تركوه لنا من تراث عظيم.

والأثر الذى تركته المؤلفات الموسوعية فى النهضة الثقافية، لا يقل خطرا عن الأثر الذى تركته حركة الإبداع والابتكار.. خاصة بعد أن ضاعت المؤلفات الأصلية واندثرت بفعل الإهمال، أو بفعل المحن والكوارث التاريخية، ونحن نعلم أن الهجمة المغولية الهمجية على ديار الإسلام تسببت فى ضياع الكتب التى وضعها رواد الثقافة العربية والإسلامية على امتداد القرون الخمسة التى سبقت الغزو المغولى، وهى الفترة التى بلغت فيها الثقافة العربية ذروة المجد، ونحن نعرف أن المغول - وكان لديهم عداء طبيعى للحضارة - جمعوا الكتب من خزائنها فى بغداد عام ٦٥٦هـ وأغرقوها فى مياه دجله وجعلوها معبرا بين

ضفتى النهر حتى اصطبغت مياهه بألوان الحبر، نفس الشئ حدث فى الأندلس بعد سقوطها تحت سنابك الأسبان عام ١٤٩٢م واندثرت آثار النهضة الثقافية التى شهدتها هذه البلاد تحت حكم العرب، وكان من أثر هاتين النكبتين أن هرع العلماء والأدباء والفنانين إلى مصر فرارا بدينهم وأرواحهم، وفى مصر انكبوا على حفظ ما تبقى لديهم من تراث فى شكل موسوعات تضمنت خلاصات وشروح ونتف من الكتب الضائعة.

وكتاب (المستطرف من كل فن مستظرف) من هذا النوع من التأليف الموسوعى الذى جمع فيه صاحبه كل ما توفر له من معلومات دينية وأدبية وعلمية وطرق ونوادر وحكم وأمثال وأفكار وأشعار ويشتمل على ٤٨ بابا فى معانى الإسلام والعقل، والذكاء والقرآن وفضله، والعلم والأدب، والآداب والحكم، والامثال السائرة، والبيان والبلاغة، والبلغاء والفصحاء، غير ما يتعلق بالسياسة والسلطات، وما يجب على الحاكم وغيره من رجال الدولة جميعا، ثم يتطرق إلى معانى العدل والاحسان، والمعاشرة والمودة، والفخر والشرف، والجود والبخل، والشجاعة والجبن، وفى العمل والكسب وأخبار العرب الأقدمين، وفى الدواب والحشرات والوحوش مرتبة حسب حروف الهجاء، وفى البحار وعجائبها، والأنهار والجبال، وعجائب المخلوقات، والقيان والجوارى والاغانى، وغير ذلك من المعلومات التاريخية والاجتماعية والسياسية ولذلك ـ كما يقول جورجى زيدان ـ نقله الأفرنج إلى الفرنسية وطبعت الترجمةفى باريس سنة ١٨٩٩ ميلادية، كما ترجم إلى التركية وطبعت هذه الترجمة فى الاستانة سنة ١٢٦٣ هجرية.

عالم موسوعى

أما المؤلف فهو (شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهى) وللأسف لا نعرف شيئا عن نشأته أو حياته أو سيرته العلمية والأدبية، حتى أن ناشر كتابه لم يقدم لنا شيئا عن سيرته باستثناء أنه مات عام ٨٥٠ هجرية، كذلك لا أعرف إذا كانت له مؤلفات أخرى غير هذا الكتاب الموسوعى، وقد حاولت أن أجد شيئا من ذلك فيما تيسر لى من مراجع، فلم أجد بغيتى.. وكل ما أستطيع أن أستنتجه أنه مات بعد عام من ولادة عالم موسوعى جليل هو الإمام السيوطى الذى ترك لنا تراثا هائلا فى شتى فروع الثقافة.. والربط بين وفاة الابشيهى ومولد السيوطى تعطينا دلالة على تواصل الحركة العلمية فى مصر، وقدرتها على التوليد، ومنافاة العقم.

مبانى الإسلام:

وفى ذاك العصر الذى كانت مصر تتنفس فيه هواء إسلاميا كان من الطبيعى أن يستهل الأشبيهى الباب الأول من كتابه (فى مبانى الإسلام) ويجعل الفصل الأول (فى الإخلاص لله والثناء عليه) وهو أن الله تعالى واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ندّ له، أزلى قائم، أبدى دائم، لا أول لو جوده، ولا آخر لأبديته، قيوم لا يغنيه الأبد، ولا يغيره الأمد، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، منزه عن الجسمية، ليس كمثلة شئ، وهو فوق كل شئ، فوقيته لا تزيده بعدا عن عباده، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شئ شهيد، وهو معكم أينما كنتم، منزه عن أن يحده زمان،مقدس عن أن يحيط به مكان، حى قادر جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور ولا تأخذه سنة

ولا نوم عالم بجميع المعلومات، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات، يعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وخفايا السرائر، مريد للكائنات، مدبر للحادثات، لا يجرى فى ملكه قليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، خير أو شر، نفع أو ضر إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته،فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وما من حركة وسكون إلا وله فى ذلك حكمة دالة على وحدانيته... ويذكر المؤلف قول الشاعر أبو العتاهية:

فيا عجبا كيف يعصى الاله

أم كيف يجحده الجاحد

وفى كل شئ له آية

تدل على أنه الواحد

والله فى كل تحريكة

وتسكينة فى الورى شاهد

فضائل الفرائض

ويخصص الفصول الأربعة للفرائض وفضائلها: الصلاة والزكاة والصوم والحج ثم ينتقل إلى الباب الثانى (فى العقل والذكاء والحمق وذمه) فينقل عن أهل العلم والمعرفة قولهم: إن العقل جوهر مضئ خلقه الله عز وجل فى الدماغ، وجعل نوره فى القلب يدرك به المعلومات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة والعقل عنده قسمان: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما، فالأول هو العقل الغريزى المشترك بين كافة العقلاء، وأما الثانى فهو العقل التجريبى وهو مكتسب،

وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع، ولذا يقال إن الشيخ أكمل عقلا وأتم رواية، وأن صاحب التجارب أكثر فهما وأرجح معرفة، وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل، وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب، ويصير به راجحا على ذوى التجارب والآداب، فمن سبقت له سابقة من الله تعالى فى قسم السعادة وأدركته عناية أزلية أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية اتصف بالذكاء والفطنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة كما نقل فى قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبى حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام فى أمر الغنم والحرث وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث، فقال أحدهما: إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثى فأهلكته وأكلته ولم تبق لى فيه شيئاً، فقال داود عليه السلام الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرا على سليمان عليه السلام وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة فقال لهما. ما حكم بينكما الملك فذكرا له ذلك فقال: غير هذا أرفق بالفريقين فعادا إلى داود عليه السلام، وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له ماهو الأرفق بالفريقين فقال سليمان تسلم الغنم إلى صاحب الحرث ـ وكان الحرث كرماً قد تدلت عناقيده فى قول أكثر المفسرين ـ فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التى كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه، سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها، وتسلم كرمه كما كان

بعناقيده وصورته فقال له داود القضاء كما قلت وحكم به كما قال سليمان عليه السلام فى هذه القصة نزل قوله تعالى: (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية، وألطاف إلهية، وإذا قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه فى قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوى التجارب والاكتساب فى كثير من الأسباب.

أقوال مأثورة:

وينقل المؤلف الأقوال المأثورة عن العقل مثل:

العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وان اشتدت عليه الريح، والجاهل تبطره أدنى منزلة، كالحشيش يحركه أدنى ريح.

قيل لعلى بن أبى طالب: صف لنا العاقل قال: الذى يضع الشئ مواضعه، قيل: فصف لنا الجاهل. قال: قد فعلت يعنى الذى لا يضع الشئ مواضعه.

وقال المنصور لولده: خذ عنى اثنتين: لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير.

وقال كسرى أنو شروان: أربعة تؤدى إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأى إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير.

وقيل: ثلاثة من رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد فى المعيشة، والتحبب إلى الناس.

وقيل: من أعجب برأى نفسه، بطل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذوى العقول مات عقله.

وقال عمروبن العاص: أهل مصر أعقل الناس صغارا، وأرحمهم كبارا

ويروى عن الأصمعى ـ زعيم الرواة العرب ـ قوله: رأيت بالبصرة شيخا يبدو عليه سمات الوقار وحوله حاشيه فأردت أن أختبر عقله فسألته عن كنيته فقال: أبو عبدالرحمن الرحيم مالك يوم الدين فضحك الأصمعى منه وقال: لقد علمت قلة عقله وكثرة جهله ولم يدفع ذلك عنه فخامة ثيابه ولا كثرة حاشيته..

الفصاحة:

وفى باب الفصاحة يذكر قول الامام فخر الدين الرازى : اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من قولهم (أفصح اللبن) إذا أخذت عنه الرغوة، وأكثر البلغاء لا يفرقون بين البلاغة والفصاحة، ويزعم بعضهم أن البلاغة فى المعانى، والفصاحة فى الألفاظ، ويستدل بقولهم: معنى بليغ، ولفظ فصيح، وقال يحيى بن خالد البرمكى: ما رأيت رجلا قط إلا هبته حتى يتكلم فان كان فصيحاً عظم فى صدرى وإن قصر سقط من عينى.

وقد سمع النبى ﷺ من عمه العباس كلاما فصيحا فقال: بارك الله لك ياعم فى جمالك، أى فصاحتك.

ومر رجل بأبى بكر الصديق رضى الله عنه ومعه ثوب، فقال له أبو بكر: أتبيعه؟ فقال: لا... رحمك الله فقال أبو بكر لو تستقيمون لقومت

ألسنتكم.. هلا قلت: لا... ورحمك الله وسأل المأمون قاضيه يحيى بن أكثم سؤالا فقال: لا... وأيد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أظرف هذه (الواو) وأحسن موقعها وكان الصاحب بن عباد يقول هذه الواو أجمل من واوات الأصداغ على وجنات الملاح.

وحكى أن معاوية رضى الله تعالى عنه بينما هو جالس فى بعض مجالسه وعنده وجوه الناس؛ فيهم الأحنف بن قيس، إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً، وكان آخر كلامه أن لعن علياً رضى الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك علياً رضى الله تعالى عنه، فلقد لقى ربه، وأفرد فى قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه، الطاهر ثوبه، العظيمة مصيبته فقال معاوية : يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وايم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعاً أو كرهاً فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفنى فهو خير لك، وإن تجبرنى على ذلك فوالله لا تجرى شفتاى به أبداً فقال قم فاصعد قال: أما والله لأنصفنك فى القول والفعل قال: وما أنت قائل إن أنصفتنى ؟ قال: أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلى على نبيه محمد ﷺ ثم أقول: أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن علياً ألا وإن معاوية وعلياً اقتتلا فاختلفا فادعى كل واحد منهما أنه مبغى عليه، وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعناً كثيراً أمنوا رحمكم الله يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحى فقال معاوية:

إذاً نعفيك يا أبا بحر. وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن علياً قد قطعك، وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر قال: أفعل فصعد المنبر ثم قال: بعد أن حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ : أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب فالعنوه فعليه لعنة الله، ثم نزل فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت منهما بينه، فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً، والكلام إلى نية المتكلم .

الفخرى فى الآداب السلطانية

قضية الحكم هى حجر الزاوية فى الفكر السياسى منذ نشأت الدول وقام على رأسها حكام يسوسونها، ويدبرون شئونها، ولو استعرضت تاريخ الدول من كل قبيل، وعلى أى رقعة، فسوف تلمس هذا الصراع الأزلى على الحكم فالحكام يعملون على الاستئثار بالحكم والاحتفاظ به والقوى الأخرى تعمل على الاطاحة بهم. فتدور رحى القتال بين هؤلاء وأولئك، وتتحرك جيوش، وتحاك مؤامرات وتسفك دماء. فيعلو من غلب. ولذلك كانت قضية الحكم الشغل الشاغل لعلماء الفكر السياسى فى كل عصر، واجتهدوا فى وضع المواصفات التى ينبغى أن تتوافر فى الحاكم، وتحدثوا عن حقوقه وواجباته، ووضعوا القواعد التى تنظم ولايته ومحاسبته وعزله.

وكما ظهر فى الفكر السياسى الأوروبى علماء استنبطوا نظرية العقد الاجتماعى والفصل بين السلطات والقواعد الدستورية التى تنظم العلاقة بين الملوك والشعوب، حدث نفس الشىء فى الفكر السياسى الإسلامى،

فلا يخلو عصر من فقهاء وعلماء ومفكرين درسوا قضية الحكم بشكل مباشر، وظهرت مدارس ومذاهب وفرق لكل منها رأى ونظر، وإلى جانب هؤلاء الذين صاغوا النظريات وأرسوا القواعد، ظهرت طائفة أخرى أميل إلى الأدب منهم إلى السياسة فى صورتها المباشرة، ووجدوا أن الواجب يقتضيهم أن يقدموا إلى ملوك عصرهم ما اعتصروه من تجارب الأمم السالفة، وما انتهى إليهم من تاريخ الملوك الغابرين، لعل فى هذه العصارة الفكرية ما ينير الطريق أمام الحكام فيلزمون جادة العدل، ويجتنبون الظلم، ورغم أن هذه الكتابات الأدبية كانت أقرب إلى النصائح والإرشادات، إلا أن كتابها لم يسلموا من العنف والاضطهاد، لأن بعض الحكام الجبابرة يستكبرون على النصح، ويعتبرونه تطاولا عليهم، وحجرا على سلطانهم المطلق، حدث هذا لعبدالله بن المقفع عندما كتب (رسالة الصحابة) فى عصر الخليفة المنصور جبار الدولة العباسية، ورغم أن الرسالة لم تتناول طغيان المنصور من قريب أو من بعيد، واقتصرت على ذكر المواصفات الطيبة التى يجب على الحاكم، أى حاكم - أن يتحراها وهو يختار صحابته وبطانته، إلا أن المنصور لم يقبل ذلك، وأسرها فى نفسه وامتلأت نفسه بالضغينة على ابن المقفع حتى إذا تهيأت له ظروف الانتقام اغتاله شر غيلة. ولعل هذا الدرس المفجع هو الذى حدا بالأمام أبى الحسن الماوردى إلى التوقف عن نشر كتابه الشهير (الأحكام السلطانية) طوال حياته، وجعله وديعة عند ابنه ولم يظهر إلى النور الا بعد وفاة الأب.

الفخرى:

ومن هذه المؤلفات التى نهجت نفس النهج كتاب (الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية) لمؤلفه محمد بن على بن طباطبا

المعروف بابن الطقطقى الذى عاش فى الموصل فيما بين سنتى ٦٦٠ هـ و ٧٠٩هـ وقدأنشأ كتابه لأمير الموصل فخر الدين عيسى بن إبراهيم، ومن هنا أطلق على كتابه اسم (الفخرى) نسبة إلى فخر الدين هذا.. ومع أن الكتاب من أشهر المصادر فى مسألة الحكم وشئون السياسة، إلا إن المعلومات التى توفرت لدينا عن المؤلف فى غاية الشح وعندما رجعت إلى موسوعة الإعلام للزركلى لم أجد سوى سطور قليلة تقول إن ابن الطقطقى مؤرخ وبحاث وناقد من أهل الموصل خلف أباه فى نقابة العلويين (الشيعة) فى الحلة والنجف وكربلاء - بالعراق وتزوج بفارسية من خراسان، وزار مراغة سنة ٦٩٦هـ وعاد إلى الموصل فألف فيها سنة ٧٠١هـ كتابه (الفخرى) ويعترف الزركلى بأنه لم يجد مصدرا يعول عليه فى ترجمته أو ضبط نسبته، ثم أورد عبارة للمستشرق (هيوارد) ذكرها فى دائرة المعارف الإسلاميةعن ابن الطقطقى يقول فيها: رغم أنه كان ذا ميول شيعية إلا أنه ألف كتابه (الفخرى) منزها عن الغرض وعقب الزركلى على ملاحظة هيوارد بقوله: إن ابن الطقطقى ألزم نفسه بهذه النزاهة فى مقدمة كتابه الا أنه غالى فى الثناء على المغول ودولتهم بما أبعده عن إنصاف الدول الإسلامية الأخرى. ولاشك أن الزركلى يقصد دولة المغول الايليخانية التى أقامها أبناء هولاكو فى ايران وأذربيجان وجعلوا عاصمتها تبريز، وذلك بعد أن فرغوا من عمليات التدمير والتخريب التى انتهت بسقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ ولو راجعنا فترة حياة المؤلف لوجدناها تشغل الفترة التى خضعت فيها بلاد المشرق الإسلامى لحكم المغول بعد أن استقروا فيها، وأنشأوا فيها دولا على النمط الإسلامى الذى كان سائدا وقد ولد المؤلف بعد ٤ سنوات فقط من تدمير بغداد فلا عجب أن يغالى فى إطراء المغول لأنه عاش فى كنفهم.

ووجدت فى الجزء الثالث من كتاب (آداب اللغة العربية) لصاحبه جورجى زيدان فقرة تتحدث عن كتاب (الفخرى) ولا تشفى غليلنا عن صاحبه، فيصف الكتاب بأنه فى التاريخ العام الذى يبدأ بالخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين وينتهى بانقضاء الدولة العباسية وسقوط بغداد، رتبه على السنين دولة دولة، وخليفة خليفة، واختص كل خليفة من العباسيين ببسط حال الوزارة فى أيامه، ومن تولاها كأنه يزيد تدوين أعمال الوزراء، فهو يمتاز بذلك عمن تقدمه، ويرى المطالع فى أثناء كلامه روحا انتقادية، وفى صدر الكتاب مقدمة طويلة فى الأمور السلطانية والسياسات الملكية، وهى من قبيل فلسفة التاريخ، أو البحث فى أسباب الحضارة، نحو ما فعل ابن خلدون فى مقدمته مطولا ، والفرق بينهما أن ابن خلدون كان شديد المدافعة عن العباسيين، والفخرى ينتقدهم.

أما عن تاريخ ظهور الكتاب فى عصرنا، يذكر جورجى زيدان أنه طبع فى غوطا سنة ١٨٦٠م، وفى باريس سنة ١٨٩٥م وفى مصر سنة ١٣١٧ هجرية، (١٨٩٩م) وترجمت قطعة منه إلى الفرنسية وطبعت سنة ١٨٤٧م ترجمها (شروبونو) وترجمه كله إلى الفرنسية (إميل أمار) وطبع سنة ١٩١٠م فى ٦٢٨ صفحة مع درس مفيد عن المؤلف.

ولابد أن يتوقف القارئ مدهوشا أمام المعلومات الأخيرة التى ذكرها جورجى زيدان، لأنها تدل على أن المستشرقين الأوروبيون هم الذين اكتشفوا الكتاب والمؤلف منذ منتصف القرن التاسع عشر، وهم الذين طبعوه وترجموه إلى لغاتهم قبل أن يصل إلى أيدى أصحابه القدامى - العرب - وهو نفس ما حدث مع ابن خلدون، فالعرب المحدثون لم يعرفوا

ابن خلدون إلا عن طريق أوروبا، وبجهود المستشرقين الذين عرفوا قيمته وجعلوا منه إماما لفلسفة التاريخ ومؤسسا لعلم الاجتماع (!!) وتلك قضية هامشية لا تدخل فى صميم موضوعنا، ولكنها تضع أيدينا على الفجوة الهائلة التى قامت بيننا وبين تراثنا.. حتى قام الأوروبيون بسدها الأمر الذى يستوجب الشكر والعرفان.

فضل العلم:

ونعود إلى كتاب (الفخرى) لصاحبه محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى، فنراه يستهل كتابه بخطبة منبرية على طريقة المؤلفين القدامى، وبعدها يتحدث عن فضل العلم وأهمية اقتناء الكتب بالنسبة للملوك حتى تستنير عقولهم، وكيف أن فضيلة العلم ظاهرة ظهور الشمس، ومؤكدة بالتنزيل فى قوله تعالى: «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون». وأما فضيلة الكتب فقدقالوا إن الكتاب هو الجليس الذى لا ينافق، ولايمل، ولا يعاتبك إذا جفوته، ولا يفشى سرك، ويروى أن بعض الخلفاء أرسل فى طلب بعض العلماء ليسامره، فلما جاء الخادم إليه وجده جالسا وحواليه كتب وهو يطالع فيها.وقال للخادم:قل لأمير المؤمنين عندى قوم من الحكماء أحادثهم، فاذا فرغت منهم حضرت، فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك قال له: ويحك! من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد قال فاحضره الساعة كيف كان فلما حضر العالم سأله الخليفة: من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك؟ قال: يا أمير المؤمنين:

لنا جلساء مــا نمل حديثهم

أمينون مأمونون غيباً ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضى

ورأيا وتأديباً ومجداً وسؤددا

فان قلت أموات فلم تعد أمرهم

وإن قلت أحياءٌ فلست مفندا

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك إلى الكتب، ولم ينكر عليه تخلفه.

وقال الجاحظ: دخلت على محمد بن اسحق أمير بغداد فى أيام ولايته وهو جالس فى الديوان والناس مثول بين يديه كأن على رؤوسهم الطير، ثم دخلت إليه بعد مدة وهو معزول وهو جالس فى خزنة كتبه وحواليه الكتب والدفاتر والمحابر والمساطر فما رأيته أهيب منه فى تلك الحال

وقال المتنبى:

أعز مكان فى الدنا سرج سابح

وخير جليس فى الزمان كتابُ

والعلم يزين الملوك أكثر مما يزين السوقة، وإذا كان الملك عالما، صار العالم ملكا، وكان الوزراء المستبدون فى الدولة العباسية يحولون بين الخلفاء الضعاف وبين الكتب حتى يظلوا على جهلهم وعماهم، ويقدمون إليهم الكتب التافهة التى تساعد على إغراقهم فى اللهو والعبث، فالوزراء يخافون أن يتثقف الخلفاء ويعرفوا حقائق الحياة وتجارب الأمم.

زلفى ونفاق:

وبعد هذا المدخل الذى يشيد بفضيلة العلم والثقافة، ينحرف المؤلف فيعزف لنا وصلة طويلة من النفاق يتزلف بها إلى أمير الموصل، ويخلع عليه من الصفات ما يرفعه إلى مرتبة الرسل والأنبياء فهو فى رأيه أفضل الملوك وأعظمهم، وأكرم الحكام وأحلمهم، فخر الملة والدين، الممنوع بخصائص لو كانت للدهر لما شكا صرفه حر، ولما مس أحدا منه ضر، ولو كانت للبحر لما كان ماؤه ملحا أجاجا، ولا خاف راكبه منه أمواجا، «عيسى» الذى أحيا الفضائل (لاحظ المقابلة مع عيسى ابن مريم الذى أحيا الموتى) ونشر طى الفواضل، وأقام سوق المكارم فى عصر كسدت فيه سوقها... الذى هو فى جبهة الدهر غرة، وفى قلادته درة، لا تداينها فى الدنيا درة.. الخ.

ولقد راودتنى نفسى أن أغض الطرف عن هذه السقطة التى وقع فيها المؤلف، ولكنى أثرت أن يقف القارىء المعاصر على صورة صادقة لحال الكتاب والمفكرين عندما يضطرون إلى ابتذال أنفسهم وأراقة ماء وجوههم تزلفاً إلى الحكام وطمعا فى أعطياتهم، وهى من ملامح تلك العصور حيث كان يستحيل على الكاتب أن يعيش بعيدا عن أبواب الحكام، وإلا مات جوعا كما مات أبو حيان التوحيدى وهو يقتات من خشاش الأرض.. وربما أراد المؤلف أن يأمن شر الحاكم، وأن تكون هذه العبارات الساقطة شفيعا له عما يأتى فى تضاعيف الكتاب من نصائح يعسر هضمها على الأمير.

ولندخل فى صلب الموضوع..

منذ البداية ينبهنا ابن الطقطقى إلى أنه لم يقصد من كتابه الحديث عن أصل الملك وانقسامه إلى رياسات دينية ودنيويةمن خلافة وسلطنة وإمارة وولاية، وإنما هو موضوع للسياسات والآداب التى ينتفع بها فى الحوادث الواقعية وفى سياسة الرعية وتحصين المملكة، وفى إصلاح الأخلاق والسيرة، وأول ما يقال فى ذلك أن الملك الفاضل هو الذى اجتمعت فيه خصال، وعدمت خصال، فأما الخصال التى يستحب أن توجد فيه فمنها:

العقل: وهو أصلها وأفضلها، وبه تساس الدول بل الملل، وفى هذا الوصف كفاية.

العدل: وهو الذى تستغزر به الأموال، وتعمر به الأعمال، وتستصلح به الرجال .

العلم: وهو ثمرة العقل وبه يستبصر الملك فيما يفعله ويتجنبه، ويأمن الزلل فى قضاياه وأحكامه، وبه يتزين الملك فى عيون العامة والخاصة، ويصير به معدودا فى خواص الملوك، وقال بعض الحكماء: الملك إذا كان خلوا من العلم كان كالفيل الهائج لا يمر بشىء إلا خبطه، ليس له زاجر من عقل، ولا رادع من علم، وأعلم أنه ليس المراد بالعلم فى الملوك هو تصور المسائل المشكلة والتبحر فى غوامض العلوم والإغراق فى طلبها. قال معاوية: ما أقبح بالملك أن يبالغ فى تحصيل علم من العلوم، وإنما المراد من العلم فى الملك هو ألا يكون له أنس بها إلا بحيث يمكنه أن يفاوض أربابها فيها مفاوضة يندفع بها الحال الحاضر، ولا ضرورة فى ذلك إلى التدقيق. وقد كان بدر الدين لؤلؤ صاحب

الموصل، لكثرة مجالسة الأفاضل والعلماء، يستنبط المعاني الحسنة مع أنه كان أميا لا يكتب ولا يقرأ.

خشية الله:

ومن الفضائل المطلوبة في الملك الفاضل: الخوف من الله لأنه أصل كل بركة، فإن الملك متى خاف الله أمنه عباد الله، روى أن عليا كرم الله وجهه استدعى بصوته بعض غلمانه فلم ويجبه، فدعاه مرارا فلم يجبه، فدخل عليه رجل وقال: يا أمير المؤمنين أنه واقف بالباب، وهو يسمع صوتك، ولا يلبيك، فلما حضر الغلام سأله الخليفة: أما سمعت صوتي؟ قال: بلى قال:فما منعك من اجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك قال علي: الحمد لله الذي خلقني ممن يأمنه خلقه.

ومن الصفات المحمودة في الملوك: العفو عن الذنوب وحسن الصفح عن الهفوات، وهذه أكبر خصال الخير، وبها تستمال القلوب، وتصلح النيات، فمما جاء في التنزيل من الحث على العفو قوله تعالى: «وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم» وكان المأمون حليما حسن الصفح معروفا بذلك، وقد هجاه دعبل الخزاعي بشعر اتهمه فيه بخمول الذكر إذ قال:

إني من القوم الذين سيوفهم

قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله

واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فلما بلغه هذا القول لم يزد على أن قال: قاتله الله.. ما أشد بهتانه! متى كنت خاملا، وفى حجر الخلافة نشأت، وبدرها أرضعت؟ وأشار البعض على المأمون بقتله فقال: القتل لا.. ولكن إصنع شعرا يعارضه..

ويعترض المؤلف على مقولة: أن الحقد خصلة محمودة فى الملك، فيقول: كيف يقال كذلك، والملك متى كان حقودا فسدت نيته لرعيته، فمقتهم وقل الالتفات إليهم، ومتى أحسوا بذلك تغيرت نياتهم له، وفسدت بواطنهم، وهل يتمكن الملك مما يريده من مهمات مملكته وبلوغ أغراضه كما فى نفسه إلا بصفاء قلوب رعيته؟ وأى حكمة فى ذلك؟ وهل فيه سوى تنغيص عيش الملك وتبغيض رعيته إليه وإيحاشهم منه؟ خصوصا والناس مركبون على الخطأ، مجبولون على تشمير الطباع، فما أكثر ما تصدر منهم موجبات الحقد، فلا يزال الملك طول دهره يعانى من الغيظ والحقد عليهم ما ينغص عليه لذته، ويشغله عن كثير من مهام مملكته، وما أكثر ما رأينا الجند أو العامة قد وثبوا على ملوكهم فسلبوهم رداء المملكة بل رداء الحياة، فابتدىء من عمر بن الخطاب، وقد وثب عليه أبو لؤلؤه المجوسى فقتله، ثم ثن بعثمان بن عفان، وانظر كيف اجتمع عليه رعيته من كل جانب فحاصروه والمصحف فى حجره حتى قطرت قطرات من دمه على المصحف ثم ثلث بعلى بن أبى طالب وقد ضربه ابن ملجم لعنه الله، بسيفه على أم رأسه بالكوفة فقتله حدث كل هذا فى الصدر الأول والناس ناس، والدين دين، ثم انظر إلى أواسط الدولة العباسية وما جرى على الخلفاء واحدا واحدا من القتل والخلع والنهب بسبب تغير نيات الجند والرعية، فهذا سمل وذاك قتل والآخر عزل .. لتعلم أن الحقد من أضر الأشياء للملك.

الوفاء بالعهد:

ويصف المؤلف «السياسة» بأنها رأس مال الملك، وعليها التعويل فى حقن الدماء، وحفظ الأموال، ومنع الشرور، وقمع المفسدين، ومنع الظلم المؤدى إلى الفتنة والاضطراب.

ومنها الوفاء بالعهد، وهو الأصل فى تسكين القلوب، وطمأنينة النفوس، ووثوق الرعية بالملك إذا طلب الأمان منه خائف، أو أراد المعاهدة منه معاهد ومنها الاطلاع على غوامض أحوال المملكة، ودقائق أمور الرعية، ومجازاة المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، كان اردشير الملك الفارسى يقول لأشراف رعيته: كان البارحة من حالك كيت وكيت (!!) حتى ظن الناس أن أردشير يأتيه ملاك من السماء يخبره بأمورهم ولم يكن ذاك الا لتيقظه.

ويتحدث ابن الطقطقى عن المشاورة مستندا إلى قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «وشاورهم فى الأمر» وضرب الأمثلة من سيرة الرسول ﷺ واختلف المتكلمون فى كون الله تعالى أمر رسوله بالاستشارة مع أنه أيده ووفقه، وفى ذلك أربعة وجوه: احدها أنه صلى الله عليه وسلم أُمِر بمشاورة أصحابه استمالة لقلوبهم وتطبيبا لنفوسهم والثانى أنه أُمر بمشاورتهم فى الحرب ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل به، والثالث أنه أمر بمشاورتهم لما فيه من النفع والمصلحة، والرابع أنه إنما أمر بمشاورتهم ليقتدى به الناس وهذا عندى - أى المؤلف - أحسن الوجوه وأصلحها.

وقـــالوا: الخطأ مـع المشـــورة، أصلح من الصـــواب مـع الانـفــراد والاستيداد، وقال صاحب كليلة ودمنة: لابد للملك من مستشار مأمون يفضى إليه بسره، ويعاونه على رأيه، فان المستشير، وان كان أفضل من المستشار وأكمل عقلا وأصح رأيا، قد يزداد برأى المشير رأيا، كما تزداد النار بالزيت ضوءا ونورا.

وإعلم أن للملك أمورا تخصه يتميز بها عن السوقة، فمنها أنه إذا أحب شيئا أحبه الناس، وإذا أبغض شيئا أبغضه الناس، وإذا لهج بشيء لهج به الناس إما طبعا أو تطبعا ليتقربوا بذلك إلى قلبه، ولذلك قيل: الناس على دين ملوكهم، ومن خواص الملك أن صحبته تورث التيه والكبر، وتقوى القلب وتكبر النفس، وليس صحبة غير الملك تفعل ذلك، ومن خواصه أنه إذا أعرض عن إنسان وجد ذلك الإنسان فى نفسه ضعفاً وإن لم ينله بمكروه واذا أقبل على انسان وجد ذلك الانسان فى نفسه قوة وإن لم يصبه منه خير، بل مجرد الإعراض والإقبال يفعل ذلك، وليس أحد من الناس بهذه المنزلة غير السلطان.

الخصال غير المستحبة:

أما الخصال التى يستحب أن تكون معدومة فى الملك، فقد ذكرها ابن المقفع فى كلام له فقال: ليس للملك أن يغضب لأن القدرة من وراء حجته وليس له أن يكذب لأنه لا يقدر أحد على إلزامه بغير ما يريد، وليس له أن يبخل لأنه أقل الناس عذرا فى خوف الفقر، وليس له أن يكون حقودا لأن قدره قد عظم عن المجازاة لأحد على إساءة صدرت منه، وليس له أن يحلف إذا حدث لأن الذى يحمل الإنسان على اليمين فى حديثه خلال: إما مهانة يجدها فى نفسه، واحتياج إلى أن يصدقه

الناس، وكلما ازداد إيمانا ازداد الناس له تكذيبا، والملك بمعزل عن هذه الدنايا كلها وقدره أكبر من ذلك ومن الخصال التي يستحب أن تكون معدومة في الملك: الحدة، فإنه ربما أصدرت عنه فعلا يندم عليه حيث لا ينفع الندم، وأكثر ما ترى أصحاب الحدة سريعي الرجوع، ومن الخصال المذمومة في الملك الضجر والسأم والملل، وذلك من أضر الأمور وأفسدها لحاله.

واعلم أن للملك على رعيته حقوقا، وأن لهم عليه حقوقا، فأما الحقوق التي تجب للملك على رعيته فمنها الطاعة، وهي الأصل الذي ينتظم به صلاح أمور الجمهور، ويتمكن به الملك من الانصاف للضعيف من القوي، والقسمة بالحق، ومما جاء في التنزيل من الحث على ذلك وهي الآية المشهورة في هذا المعنى قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» ومن أمثالهم: لا إمرة لمن لا يطاع.

قوانين الملوك لابن العسال

هذا الكتاب (قوانين الملوك) من التراث القبطى، وهو ثمرة ناضجة من ثمار الإنتاج العلمى التى آتت أكلها فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى ـ العاشر للشهداء) وهو يضم المجموعة الشرعية شبه الرسمية للفقه المسيحى القبطى، وخلاصة ما توصل إليه المشرع المسيحى موصولا بمنابعه الأولى من الكتاب المقدس وقرارات الآباء فى المجامع الكنسية، وآرائهم المبثوثة فى مؤلفاتهم، وما أمكن اقتباسه من التشريعات المحلية ذات الأصول المرعية والتقاليد والعادات والأعراف المصرية، ولأن الكتاب وضع تحت سمع وبصر الكنيسة القبطية وبتأييد من رجالها، فإنهم كتبوا إلى الكنائس بضرورة العمل بأحكامه، ثم امتد صداه إلى الحبشة التى تنتسب إلى الكنيسة المصرية، وتستمد منها سلطانها الروحى، وتمت ترجمته إلى اللغة الجعزية «الحبشية القديمة» ولا يزال الكتاب حتى عصرنا الحاضر من دعائم نهضتها التشريعية فى

الميدانين الكنسى والمدنى، ولقى الكتاب عند الأحباش نفس المكانة التى يحظى بها عند الكنيسة الأم.

قبل أن أحدثك عن الظروف والأسباب التى دعت إلى تأليف هذا الكتاب الثمين، أبدأبالحديث عن المؤلف: الصفى بن العسال.. أحد ثلاثة إخوة اشتهروا فى التاريخ باسم (أولاد العسال) وغلبت شهرة الأسرة على أسماء الأولاد حتى اختلطت أسماؤهم فيما تركوه من مؤلفات فقد اشتغل أولاد العسال بالأدب والعلم، وشغلوا مناصب هامة فى الدولة الأيوبية طوال النصف الأول من القرن السابع الهجرى، وكما كانوا مقربين من الدولة، كانوا مقربين من الكنيسة، وعرفت لهم جولات طيبة فى الميادين العلمية - اللغوية والدينية - وحفظت لهم كتب لاتزال موضع اهتمام الدارسين.

المشهور عن أولاد العسال أنهم ثلاثة:

الصفى أبو الفضائل (مؤلف الكتاب)

الأسعد أبو الفرج هبة الله

المؤتمن أبو إسحق.

وهم أبناء أسرة قبطية أرثوذكسية ترتقى فى درجات نسبها إلى أبى البشر يوحنا «الكاتب المصرى» ولم يقدم المؤرخون المعاصرون لأولاد العسال معلومات مفصلة فى التعريف بهذه الأسرة ونشأتها وموطنها الأول، وقد حاول بعض المؤرخين أن يشكك فى مصرية أولاد العسال ويجعلهم أقرب إلى الانتساب إلى الشام، ولكن القلقشندى فى «صبح الأعشى» نفى هذا الوهم وروى المقريزى فى «الخطط» عن أخبار الملك

الصالح نجم الدين أيوب أنه طلب أحد كتاب الديوان ذات يوم جمعة، فلم يجده لأنه يوم عطلة، فأمر باستخدام كاتب نصرانى يقعد يوم الجمعة لمواجهة أى طارئ فاستخدم الأمجد بن العسال.

أما أشهر أولاد العسال فهو «الصفى» الذى جمع مواد هذا الكتاب الذى اشتهر باسم «المجموعة الصفوية» نسبة إلى صاحبه أما اسم (قوانين الملوك) فهو الترجمة العربية لاسم الكتاب بعد ترجمته إلى اللغة الحبشية (فتح نجشت) وأما سبب تأليفه فيرجع إلى الظروف التى تعرضت لها الكنيسة المصرية فى عهد البطريرك الخامس والسبعين (كيرلس بن لقلق) فرغم ما كان يتمتع به الرجل من علم وفضل، إلا أنه أدخل على تقاليد البطريركية أموراً أغضبت الأساقفة مما دفعهم إلى عقد مجمع مقدس حضره أربعة عشر أسقفاً يمثلون الوجهين البحرى والقبلى لمعالجة هذه الارتباكات المؤسفة وعقد المجمع فى كنيسة حارة باب زويلة بالقاهرة، ثم عقد مجمع آخر بالقلعة حضره الصاحب الوزير معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ وفى هذين المجمعين وضعت نصوص القوانين والتشريعات، وكان الصفى بن العسال كاتم السر، فكلفه الأساقفة بكتابة مسودة قوانين المجمع الأول بخطه، كما كتب الأنبا يوساب أسقف مدينة فوة قوانين المجمع الثانى بخطه، وبين المجمعين أصدر البطريرك كيرلس مجموعة أخرى من القوانين، وقد استفاد ابن العسال من جميع ذلك، وانتهى جهده إلى خلاصة شاملة للقوانين الكنسية هى مادة هذا الكتاب الذى توجد بعض مخطوطات منه فى معهد الدراسات القبطية والمتحف القبطى، وصدر مطبوعا فى سنة ١٩٠٨ بجهد وتعليق العلامة جرجس فيلوثاوس، ثم نشره مرقص جرجس سنة ١٩٢٧ وفى عام ١٩٦٥ قدم الدكتور عبدالسميع محمد

أحمد الأستاذ بقسم اللغات الشرقية بجامعة القاهرة دراسة منهجية عن الكتاب مقارنة بترجمته الحبشية وبذل فيه جهداً علمياً ألقى فيه الضوء على هذه الصفحة من تراثنا القبطي ويشتمل الكتاب على جزءين متميزين تتصل أبواب كل منهما بعضها ببعض اتصالاً وثيقا ويعنى الجزء الأول منهما بالمسائل الدينية البحتة، كالكنيسة ورجال الأكليروس والرهبان وطقوس العبادة والفرائض الدينية المعروفة، ويعنى الجزء الثانى بالسياسة الشخصية كالمآكل والملابس والمنازل والصنايع والأحوال الشخصية وما يرتبط بها من زواج وطلاق وميراث ووصية، وكالحرية والعبودية،كما يهتم بالمعاملات المدنية كالمبايعات والوديعة والقروض والجرائم وعقوباتها، غير أن الدكتور عبدالسميع محمد أحمد رأى تقسيم كتاب ابن العسال على نهج آخر تبعا للمصادر التى كانت ذات تأثير قوى فيه وأخص هذه المصادر هى:

المصادر المسيحية:

المصادر الإسلامية:

أما المصادر المسيحية فتتصل بسابقتها الموسوية بالضرورة فالمسيحية مكملة لها، معتمدة على مقدساتها، والكتاب المقدس عند المسيحيين يشتمل العهدين القديم والجديد معا، وتتصل كذلك ببعض القوانين الرومانية التى أخذت عنها المسيحية من قرب تبعاً للبيئة الرومانية التى عاشت فيها المسيحية الأولى، وأثر فيها وتأثر بها حواريو المسيح وتلاميذه وآباء الكنيسة الأوائل ومعظم أثر هذا المصدر تجده فى الجزء الأول من الكتاب وبعض أبواب الجزء الثانى التى تحرص على الاستمداد من المصادر المسيحية وتجد فيها مادة غزيرة تصلح لأن

تكون تشريعاً ويرى الدكتور عبدالسميع أن تأثير المصادر المسيحية يتضاءل فى بعض أبواب الجزء الثانى، حتى يكاد أن يمحى ليحل محله المصدر الإسلامى، خاصة فى أبواب السياسة المدنية كالمبايعات والشركة والوديعة والوكالة وغيرها.

مبدأ الناموس:

ويعالج الباحث المصادر المسيحية علاجاً موضوعياً حسب تقدمها فى حساب التاريخ والتشريع، ومن الطبيعى أن تكون البداية من العهد القديم، فهو أسبق من حيث الزمن ومن حيث التشريع، ولما يلقاه فى نفوس المسيحيين من إكبار وتقديس باعتباره مبدأ الناموس الذى أكمله المسيح عليه السلام، وسواء قبلت تعاليمه كلها أو عدل عن بعضها، فما يزال لديهم الكتاب المقدس المعتمد عليه والمعتقد به ويقول الدكتور عبدالسميع أن كتاباً كثيرين تعاونوا على تدوين العهد القديم على مدى أكثر من ألف عام عاصر فيها الإسرائيليون فى حلهم وترحالهم، وشهد حروبهم وسلامهم، وسجل أخبار أنبيائهم وملوكهم وأسماء ذرياتهم وأطلعنا على ظروف حياتهم ومعاشهم ونظمهم وتشريعاتهم، كما دون أدبهم وأشعارهم وقصصهم وسجلوا فيها تعاليم الرسول موسى عليه السلام ووصاياه وشرآئعه وموقفهم من هذه الوصايا والشرائع، كما كتبوا تاريخهم فى هذه الأحقاب الطويلة ونبوة أنبيائهم الذين كانوا يدعونهم إلى الطاعة والرجوع إلى الحق واتباع التعاليم، وينهرونهم لعصيانهم ومخالفاتهم الدائبة وقد يكون ذلك مصحوباً بالعبارات المؤثرة والشعر الحزين والأمثال والحكم الرائعة وفى كل باب من أبواب التشريع نرى

ابن العسال يقتبس من شريعة موسى عليه السلام ما يراه صالحاً لوضع القانون الكنسى، ولكنه يعطى الأولوية لما هو موجود فى شريعة العهد الجديد والأمثلة كثيرة، فقد وجد أن نظام الكهنة له أصول وسوابق فى شريعة العهد القديم، ولكنه تطور بعد ظهور المسيحية، ولذا نراه لا يستقى نظام الكهنة من أسفار التوراة، وإنما يستقيه من آباء الكنيسة المسيحية الذين طوروا هذا النظام ووضعوا له تقاليد خاصة ورسوما حددوها.

وفى الحديث عن الختان نرى الشريعة الموسوية حرصت على الختان وشددت عليه حتى أصبحت تعرف «بشريعة الختان» وأمرت بأن يختن الذكور فى اليوم الثامن من ولادتهم، لأن الختان كان عهدا بين الرب وإبراهيم، ولكن المسيحية استعاضت عن الختان بالمعمودية، وأصبح مما يجوز تركه ويجوز عمله عملا غير شرعى، وقد تحدث ابن العسال كثيراً فى بيان وجهة النظر المسيحية فى الختان، راداً على شريعة التوراة فى فرضه وتقريره وفى باب الأطعمة حدد ابن العسال فى كتابه ما يحرم من الأطعمة فى قوله: «فأما ما سوى الدم والمخنوق وذبيحة الأوثان وما كسره السبع فمباح لنا شرعاً لا نمتنع من شئ منه إلا مما هو فى حكم ما حرم فى الشريعة إما لكونه يؤدى إلى فساد اعتقاد أو فساد أخلاق، أو فساد بدن» والمذهب عنده حسب التشريع المسيحى ألا تشرب الخمر للسكر، ولكن تناولها لغير هذا الغرض لا شئ فيه، بل إن من يمتنع عنها معتقداً حرمتها يصيب شيئاً من الإثم، وبذلك صرف ابن العسال النظر عما ورد فى شريعة موسى عليه السلام من تحريم لما حرم، وأن كان قد نصح إلى اجتناب بعضه، لا اعتمادا على التشريع الموسوى، ولكن توقيا لما ينجم عنه من إيذاء.

الزكاة والعشور:

وفى باب الزكاة والعشور والكفارات والقرابين، فرضت شريعة موسى عليه السلام على الإسرائيليين ضروباً من الأعباء المالية تطهيراً لنفوسهم وتزكية لأموالهم وهذا بخلاف أعباء مالية يفرضها الإنسان على نفسه كالنذر والكفارة والقربان ويوجد فى الشريعة المسيحية نظير هذه الأعباء، عدا الزكاة، وقد تأثر ابن العسال بما وجده فى شريعة العهد القديم، فكتب فى كل هذه الأبواب.

أما الأعياد والاحتفالات الإسرائيلية فقد رفضتها المسيحية واتخذت لها أعياداً تلائمها وتتفق مع الأيام المكرمة لديها، وأوصت رعاياها بعدم تقليد اليهود فى عطلة السبت، واعتبرت من يصنع ذلك خارجاً على التعاليم المسيحية.

أما تشريعات الزواج والطلاق الموسوية فقد كان لها أثرها البارز فى القانون المسيحى الذى كتبه ابن العسال، غير أنه سجل التطور الذى دعت إليه ظروف الحياة الجديدة ونظمها، استناداً إلى آراء آباء الكنيسة وتعاليم الرسل وتمشياً مع روح «العهد الجديد» من الكتاب المقدس.

وفى باب الميراث استحدث العهد الجديد عدم حرمان البنات من الميراث خلافاً عن شريعة موسى عليه السلام، وقد رأى ابن العسال، اعتماداً على تشريعات العهد الجديد أن تعطى النساء حقوقهن فى الميراث، وأن يسوى بين الأبناء والبنات فى الدرجة والتقدير مما لا يوجد نظيره فى تشريعات العهد القديم.

وفى قضية الحرية والعبودية والعتق يقول الدكتور عبدالسميع محمد أحمد إن روح التعصب الشديد والأنانية سيطرت على الإسرائيليين إلى

حد استعباد الغير، وفى تشريعات الحرية والرق أدلة على ذلك بارزة سجلها العهد القديم، فالأبناء يرثون الرق عن آبائهم، فإذا أعتق الأب بقى الأبناء على ملك سيدهم، وشئ آخر بالغ القسوة فى هذا المقام، فالعبد الذى يختار الرق «يخرز فى أذنه ويبقى عبدا إلى الأبد» وقد رفض ابن العسال هذه التفرقة العنصرية التى نادت بها أسفار العهد القديم واقتبس ماعداها من تشريعات الرق والحرية وأضاف إليها كثيراً مما استوحاه من تشريعات أخرى غير تشريعات العهد القديم.

قوانين المعاملات المدنية:

وفى الأمور المدينة ومعاملات الناس فى حياتهم اليومية والتى تحتاج إلى تقنين، ورغم أن العهد القديم عنى بها إلى حد كبير، إلا أن الباحث لم يجد سوى القليل الذى لا يكفى لإرساء القواعد وتوضيح الحدود. ولاحظ تضارب الأحكام كما هو فى موضوع «الربا» فقد كالت التوراة بكيلين، فحرمت الربا حين يقرض اليهودى أخاه، وأباحته حين يقرض الأجنبى، و«الأخ» المقصود فى التوراة هو الإسرائيلى عموماً وليس أخوة الدم ولما كانت الأحكام المدنية التوراتية لا تفى للقضاء بين الناس فى الشئون المدنية، وبعضها لا يلائم الدعوة إلى الأخوة الإنسانية والمساواة فى الحقوق والمواجهات، فقد اتجه ابن العسال إلى استمداد التشريعات المدنية من مصدر وجد فيه بغيته، وهى تشريعات وأحكام الفقه الإسلامى.

وفى باب الجرائم والعقوبات لوحظ أن شريعة العهد القديم تتسم بالتساوى فى القصاص: النفس بالنفس، والعين بالعين، والسن بالسن، وأن تجازى النفس بما كسبت، فلا تحمل إثم نفس أخرى «كل إنسان

بخطيئته يقتل» .. فالقصاص عقوبة القتل العمد، والموت حرقاً عقوبة الزنا، أما العذراء فتمهر مهر العذارى وتزوج إلى الجانى «لايقدر أن يطلقها أبداً» والقتل عقوبة اللواط، ومن يضاجع بهيمة يقتل، أما الأنثى فتقتل هى والبهيمة، وتستحلف الزوجة حلف اللعنة إذا قذفها زوجها بالزنا دون أن تكون لديه بينة على دعواه، فإن ظهر صدقه ترجم الزوجة، وإلا غرم مائة من الفضة تعطى لأبى الزوجة، وزوجته لا تطلق منه أبدا. والرق عقوبة السارق ثم عدل فصار القتل لمن يسرق إنساناً ليبيعه، أما إذ سرق ثوراً أو شاة فذبحها أو باعها، فيعوض المسروق بخمسة ثيران،أو أربع شياه، وناقب البيت ليلاً فيهدر دمه، ومن أصابه فلا قصاص عليه.

ويتضح من تتبع الجرائم أن الحدود كانت بدنية فى بعض الجرائم وأقصاها القتل رجماً أو حرقاً أو تعليقاً على الخشبة أو الجلد، وهناك العقوبات المالية كالدية والعوض، وقد استفاد ابن العسال أكبر استفادة من هذه التشريعات ونقل نصوصها بألفاظها، بالإضافة إلى ما استمده من تشريعات استوحاها من مصادر أخرى عديدة.

نظام القضاء:

وفى نظام القضاء كان الرسول موسى عليه السلام يضطلع بأعباء القضاء وحده، فيجلس له من الصباح إلى المساء، ويقف الشعب لديه يسأله ويستقضيه، ثم وضع نظاماً قضائياً استجابة لنصيحة حميه «يثرون» فعين رؤساء ألوف ورؤوس مئات، ورؤوس خماسين، ورؤوساء عشرات، وعرفاء للأسباط يقضون للشعب كل حين، واختص هو بالدعاوى الكبيرة وتبليغ فرائض الله، واشترط فى القاضى القدرة

والأمانة والنزاهة والخوف من الله، وبغض الرشوة. وعليه أن يستمع إلى الخصوم، والحكم بالعدل، وعدم الجور، وعدم التحريف فى الحكم، والامتناع عن محاباة فقير أو مسكين، وقد استفاد ابن العسال فى كتابه من هذا النظام القضائى، عدا النظام الإدارى الذى يقسم الشعب إلى طوائف: آلاف ومئين وخماسين وعشرات وعرفاء وأسباط، فلم يتقيد به واستمد نظامه من البيئة الإسلامية وفى مجال الشرائع الحربية يقول الباحث الدكتور عبدالسميع إن موسى عليه السلام اختار رجال جيشه ممثلين لكل الشعب، ألفاً من كل سبط ووضع عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات، وكان يبعث فى المقدمة الطلآئع والجواسيس لاستطلاع مواقع العدو وتحصيناته وخيرات أرضه ليأخذ أهبته لكل الاحتمالات، فإذا اقترب وقت المعركة نصح الكاهن والعرفاء والشعب، وطلبوا من المتخلفين أن ينهضوا لأداء واجباتهم قبل الشروع فى الحرب.

وتتلخص مبادئ موسى عليه السلام الحربية فى عدة نقاط، فأول ما يبدأ به هو دعوة المدينة المحاربة إلى الصلح ولكن هذا الصلح لا يدع الأمان والاستقرار للمدينة، وإنما يمنح الجيش المهاجم فرصة استعباد الشعب وتسخيره، فإذا لم تستجب المدينة لدعوة الصلح، كان الخطوة الثانية أن يحاصرها حتى يدفعها الرب إليه، وحينئذ تكون الطامة : ضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة فغنيمة له، وتتكرر النصوص التى تدعو إلى السلب والنهب واستباحة المدن وحرقها، وهناك أوامر صريحة منسوبة إلى موسى عليه السلام بقتل الأطفال الذكور والنساء غير الأوانس. مما لا يتفق مع المبادئ الإنسانية، ومثل الرحمة والعطف التى تنادى بها الرسالات السماوية.

طوبى للرحماء:

أما الغنائم فكان يبدأ بتقديم زكاتها للرب بعد أن تقسم نصفين:

أحدهما للمحاربين.

والثانى لغير المحاربين من سائر الشعب: نفس من كل خمسمائة من الناس والبقر والحمير والغنم، عن المحاربين، وواحدة من كل خمسين من الناس والبقر والحمير والغنم من جميع البهائم، وتعطى للاويين الحافظين شعائر مسكن الرب، هذا عدا الذهب والفضة وسائر ما يسلب أو ينهب وقد استعان ابن العسال ببعض الأسس التى وضعها العهد القديم لتشريعات الحروب، ولكنه نفر من نوازع القسوة والوحشية التى تضمنها، ودعا إلى قبول طلب الأجارة والاستغاثة الذى يصدر من الأعداء ويقول فى هذا الأمر:

«وإن إستجاروا بك فأجرهم. فإن الرب قال: طوبى للرحماء فإنهم يرحمون، وشكر الله المنعم واجب برحمة عبيده».

ويبدو من هذه الدراسة الشاملة لتشريعات العهد القديم الأثر الكبير الذى تركته فى قوانين ابن العسال.

وبعد ذلك ينتقل ابن العسال إلى مجال التشريع من العهد الجديد المصدر المسيحى الخالص وهو موضوع الجزء الثانى من كتاب (قوانين الملوك).

المجموع الصفوى

لابن العسال

كان من الطبيعى أن يستمد التشريع المسيحى أحكامه من الكتاب المقدس بعهديه: القديم (شريعة موسى) والجديد ويضم الأناجيل الأربعة والأسفار التى كتبها الآباء الأوائل، إلا أن حاجة المجتمعات إلى ضوابط تعصم السلوك الإنسانى. وتضع الحدود الفاصلة للمعاملات، دفعت رجال التشريع المسيحى إلى البحث عن مصادر أخرى إلى جانب الكتاب المقدس وتكون لها حجية التشريع لما لها من صلة وثيقة بالأصولية المسيحية، وقد وجد المشرع بغيته فى العديد من المصادر الموثوقة والمعتمدة من رؤساء الدين، ومن مجموع هذه المصادر وضع العالم القبطى الصفى ابن العسال كتابه (المجموع الصفوى) أو (قوانين الملوك) كما وصفته الكنيسة الحبشية.

يقف كتاب (الدسقلية) فى طليعة المصادر التشريعية التى استمد منها ابن العسال قوانينه. وهذ ا الكتاب من تراث كنيسة الاسكندرية

وتضعه فى المرتبة التالية للكتاب المقدس، ويدور حديث طويل حول مؤلف هذا الكتاب ويرجح الدكتور توفيق شحاتة أن الكتاب وضع فى القرن الثالث الميلادى، أما مادته فتستند إلى تعاليم وتشريعات الكتاب المقدس، وإلى وصايا الرسل والحواريين وتثقيفاتهم وما رتبوه فى شئون البيعة ومدبريها وواجباتهم الروحية والتعليمية تجاه شعب الكنيسة، وكذلك واجبات الشعب نحوهم ونحو أنفسهم، فخصصت الباب الأول فى وصية الأغنياء، ودعوتهم إلى التأدب بآداب الكتاب المقدس، وتناول الباب الثانى توصية النساء وتوجيههن، ثم أبوابا للأساقفة ورجال الأكليروس ما لهم وما عليهم، وأخرى للعلمانيين، كما بينت طقوس الصلوات والصوم والقربات وفروض الطاعات.. الخ..

كل هذه المواد كانت معينا طيبا غزيرا لابن العسال اقتبس منه اقتباسا فسيح المدى وهو يضع تشريعات الكنيسة المصرية فى القرن الثالث عشر الميلادى. أما المصدر الثانى - خارج إطار الكتاب المقدس - فهو مقررات المجامع المسيحية التى بحثت فى شئون العقيدة عقب رفع السيد المسيح عليه السلام، وكانت تضم رؤساء الدين، وفيها تقرر ما يتفق وروح الدين ثم حمله الرسل والمبعوثون إلى كافة البلاد وأبلغوه للناس، وقد بدأ عقد هذه المجامع فى صورة مصغرة محلية لا تتعدى الأرض التى شهدت جهاد السيد المسيح عليه السلام. ومع انتشار المسيحية وتعدد المشاكل والقضايا الدينية والدنيوية توالى عقد المجامع فى صورة مسكونية، أى عالمية تضم رؤساء الكنائس الكبرى فى الشرق والغرب، وانعقد أول هذه المجامع فى نيقيه بآسيا الصغرى سنة ٣٢٥ م بناء على طلب الامبراطور قسطنطين الكبير.. وقد اضطلعت هذه

المجامع بتوضيح أهم ما يمس العقيدة المسيحية مما لم يقطع الانجيل فيه بأمر حاسم، وكانت فى نفس الوقت فرصة سانحة لوضع عدد من التشريعات التى عالجت مسائل كنسية، كما عالجت مسائل اجتماعية كالزواج والطلاق والميراث والوصية والعتق، كما تناولت المسائل المدنية كالبيع والهبة والقرض والمضاربة والشركة، وتحدثت عن بعض العقوبات التى تفرضها الكنيسة على المذنبين، والعقوبات التى تفرضها الدولة.

ولما كانت قرارات المجامع المسكونية ملزمة لجميع المسيحيين، فقد اعتبروا الخارج عليها خارجا على مقتضى الدين القويم، ومن ثم عول عليها المسيحيون فى شتى البقاع، وصار لها فى نفوسهم منزلة الإكبار والإجلال. وباتت قوانين المجامع فى مجموعها تمثل مصدرا كبيرا اعتمد عليه ابن العسال وهو يضع «المجموع الصفوى».

* الأحوال الشخصية

يقول الدكتور عبدالسميع محمد أحمد فى دراسته الأكاديمية عن المجموع الصفوى إن هذه القوانين عالجت موضوع الأحوال الشخصية فى أكثر من ناحية، وإن كان علاجها لا يحيط بظروف كل منها إحاطة تأتى على أسسها وتفصيلاتها جميعاً، ولكنها على كل حال تعد مكملة أو مؤكدة، وفى كثير من الأحوال مقتبسة من مصادر أخرى. «الزواج» رأت القوانين أن الفتاة يؤخذ رأيها قبل الشروع فى إجراءات زواجها، فإذا خطبت وقدم لها الخاطب هدية أو عربونا، ثم فسخت الخطوبة، ضاع على الخطيب إن كان السبب من جهته، وإلا رد

العربون والهدايا، وإن مات الرجل خضع العربون لما يتبع فى الميراث، أما المهر فقد تحدثت عنه القوانين فى أكثر من موضع، من حيث تصرف المرأة فيه فى حياة أبيها وجدها، وإمكان زيادته، وإمكان الزواج دون مهر، وطريقة التصرف فيه عند وقوع الفرقة بين الزوجين أو الوفاة، وموقف الأولاد من إرث المهر أو الجهاز. واشترطت أن تكون زيجة القاصر بإذن ولي أمرها، فإن كانت الزوجة تامة بالغة لم يشترط ذلك. وعالجت القوانين الزيجات المحرمة، فحرمت زواج المؤمنات من غير المؤمنين، وزواج المخطوبة، والزواج بامرأتين، كما تحدثت عن المحرمات من جهة القرابة.الوضعية ـ والمحرمات من جهة النسب. وحرمت زواج المرأة المتزوجة، والعذراء التى نذرت نفسها، واختطاف النساء على اسم الزيجة أو غصبهن، أما المرأة التى تعجلت الزواج قبل أن تتحقق أمر زوجها الغائب فقد تسقط فى إثم الساقطات، وكذلك التى تزوجت رجلا غابت امرأته، وسكتت القوانين عن زواج الحرة بالعبد، ولكنها تحدثت عن نتائجه وحذرت الرجال الذين يأوون الزانيات ويعولونهن، والزوجة التى تترك زوجها، والزوج الذى يترك زوجته.

أما الطلاق فقد حدت الشريعة المسيحية من حق الزوجين فى الطلاق، وحاولت القوانين أن تلم بشئ من أحواله، فمن أراد أن يطلق زوجته فليعطها كتاب طلاق يحدد فيه تاريخه وسببه، وكما أن الزواج ضرورة اجتماعية، فالطلاق أيضا له دواعيه، كمرض أحد الزوجين مرضا مؤذياً، وسلوك أحدهما سلوكا شائنا، أما الاعتذار بالدخول فى السلك الكهنوتى فلا يصح أن يكون سببا مقبولا، وإذا تم الطلاق يترتب عليه مغارم قد تلحق بالزوج أو الزوجة من جهة المهر أو الجهاز أو مال الزوجة النامى فى بيت الزوجية أو نفقة الزوجة بعد الطلاق، ويباح

للزوجة فى بعض الظروف أن تصحب معها أحد أبنائها تحضنه وتربيه وتتخذه سنداً لها. وقد أفاد ابن العسال من كل ذلك فى كتابه تاريخ الملوك أو المجموع الصفوى.

وكادت قوانين المجامع أن تهمل فى الميراث، وقد رأت أن أول ما يبدأ به من تركة المتوفى أداء ثم الكفن والقبر وأجر الحفار، ثم إخراج ما يكون على التركة من دين أو خراج، أو يتكفل الوارث بإخراجه من ماله إن قبل الميراث على علاته، وقبل تقسيم التركة على الورثة عليهم تنحية ثلاثة أرباعها أن كان المتوفى قد كتب بها وصية للغرباء.

وفى شأن «الوصية» خلطت قوانين الملوك بينها وبين الوقف والميراث، وجمعت بينهما فى وعاء واحد ولم تضع حدودا فاصلة فيما يصح أن يورث أو يوقف أو يوصى به، ولذا قام ابن العسال بجهد مشكور فى تنسيق هذه القواعد وتحديدها وترتيبها، ولاءم بينها وبين مقتبساته القليلة التى تفيد فى هذا الموضع من كتابه.

* الحرية والعبودية:

وفى مسألة الحرية والعبودية والعتق، اعتبرت الحرية حقا إلهيا منحه الله جميع خلقه، ولا يزول هذا الحق إلا بما يعرض له من عاديات البشر، غير أن قوانين الملوك رأت أنه إذا تنازل إنسان عن حريته وأقر بعبوديته لإنسان آخر، عومل باقراره وحرم حريته، وينطبق ذلك على المرأة الحرة إذا تزوجت بعبد، وسكنت معه فى منزل مواليه، أو إذا أسكنت العبد عندها، وإذا أحبت الخروج يسر لها ذلك ويبقى أولادها عبيدا، وقد يعاقب الإنسان الذى يأوى عبد غيره واتخذه عبدا لنفسه، فيعاقب بحرمانه من حريته، ودخوله مع العبد فى خدمة مولاه، ومن

يأوى صبيا أو صبية من اللقطاء أو أولاد الفقراء فإن له حق اتخاذهم عبيدا له، وتصرفات العبد جائزة، فكل ما اشتراه فهو لمولاه، ولكن لا يجوز له أن يكون وكيلا عن سيده فى خصومة الأحرار، وقد صانت القوانين آدميته، فحرمت على السيد أن يقتل مملوكه بيده، بل يتولى عقوبته الولاة، وإذا استرد العبد حريته فإنه يتمتع بما يتمتع به الأحرار فى تصرفاتهم، ويشهد على وثيقة العتق الأساقفة والقسس ويكتبون وثيقة العتق بخطوطهم وكثير مما ورد فى كتاب (قوانين الملوك) لابن العسال فى شأن الحرية والعتق مستمد من هذه القوانين بالإضافة إلى مصادر أخرى.

* مدونة جستنيان:

ولم تحظ الأمور المدنية والمعاملات الدنيوية بما تستحق من عناية قوانين المجامع المسيحية، وكان نصيبها ضئيلا جدا بالقياس إلى خطورتها وأهميتها وارتباطها بالحياة اليومية، ومن ثم لجأ ابن العسال إلى مصادر أخرى غير هذه القوانين ممثلة فى التشريعات السائدة فى عصره، والمستمدة قبل كل شئ من الشريعة الإسلامية بالإضافة إلى العرف المألوف والأمر الشائع.

وقبل الحديث عن بصمات الشريعة الإسلامية فى (قوانين الملوك) لابد من الإشارة إلى مصدر آخر استمد منه ابن العسال تشريعاته، ونعنى بها (مدونة الامبراطور جستنيان) الذى حكم الامبراطورية الرومانية الشرقية فيما بين عامى ٥٢٧و ٥٦٥ ميلادية.

وكان جستنيان قد ورث عن أسلافه ثروة قانونية قيمة هى ثمرة جهود المشرعين الرومان مما دعا جستنيان إلى تكليف عشرة من فقهاء

القانون بمراجعة جميع القوانين السابق صدورها على عصره، والقوانين والمراسيم الصادرة فى عهده، للوصول إلى تشريع موحد ينسخها جميعاً، وتوالى صدور هذه التشريعات مما أتاح لعصر جستنيان أن يفخر بهذا الانجاز الذى يذكره له التاريخ التشريعى بالتقدير والإعجاب، وقد جعل جستنيان الشريعة المسيحية بين المراجع القانونية له، واعترف بالزعامة للكنيسة «الرومانية» وأعلن خضوعه لسلطانها، مما جعل ابن العسال لا يعتمد على كل ما جاء فى مدونه جستنيان، نظرا لاختلاف المشارب بين الكنيسة الرومانية، وكنيسة الاسكندرية التى ينتمى إليها ابن العسال.

وقد سجل الدكتور عبدالسميع محمد أحمد مظاهر التباعد بين المدونة وكتاب ابن العسال من حيث الشكل والنهج، فلم يتأثر ابن العسال بطريقة مدونة جستنيان فى علاج الموضوعات التى طرحتها، ولذلك نراه يتجه صوب كتب الفقه الإسلامى، فتأثر بها من حيث الشكل العام، ومن حيث النهج الخاص الذى عالج به كل باب من أبواب كتابه.

وفى ختام حديثه عن اقتباسات ابن العسال من المدونة ينبهنا الدكتور عبدالسميع إلى أن ابن العسال لم يتصل بالمدونة اتصالا مباشرا، ورغم وجوه الشبه فى بعض الأحكام بين المدونة وبين (المجموع الصفوى) .. بل ينبهنا إلى ما هو أكثر من ذلك. وهو أن المصادر المسيحية التى استقى منها ابن العسال لم تستحوذ على (المجموع الصفوى) كله، فقد عاش ابن العسال فى مصر، فى العهد الأيوبى، عهد ابن العسال، حيث تدين البلاد بالتشريع الإسلامى وأحكامه، وتخضع للعرف المألوف الذى يسود فيها، ولابد أن يتأثر ابن العسال بهذا، خاصة فيما لا يمس شيئا من قواعد الدين المسيحى ورسومه.

* أصول أربعة:

لقد استمد ابن العسال الأحكام التشريعية التى ارتضتها الكنيسة القبطية من مصادر مسيحية أصولية وفى صدرها كتب العهد القديم والجديد وأقوال الرسل والآباء القديسين والعلماء وقوانين المجامع، بالإضافة إلى طائفة من الأحكام التى لم يرد بشأنها نص، والتى تركها المتقدمون لرؤساء الأقاليم يقررون فيها ما تمليه عليهم ظروف العصر والبيئة، وتعود هذه الأحكام، كما ذكر ابن العسال، إلى أصول أربعة:

* نصوص الكتب الإلهية وتأويلاتها المتفق على صحتها.

* الكتب المقبولة من أقوال الرسل وأفعالهم، وأقوال المجامع المقدسة.

*إجماع القوانين والآباء والعلماء القديسين.

* القياس الذى يتوصل به إلى معرفة رد الفروع المحتاج إليها، المسكوت عنها، إلى الأصول المصرح بها والمجمع على تأويلها، ليتوصل إلى الحكم على الحوادث الجزئية.

يقول الدكتور عبدالسميع محمد أحمد: غير أن هذه الأصول، خاصة الثلاثة الأولى منها، لم يجد فيها رجال التشريع المسيحى ما يسد حاجات الناس فى البيئات المختلفة، والأعصر المتوالية، فمست الحاجة إلى التماس أحكام ما يعرض من حوادث، إلى تشريعات وقوانين وعادات البيئة التى يقطنها الشعب، غير مقيد بما يلتزم به غيره، وفى الكتاب المقدس وأقوال الرسل والآباء ما يسمح بذلك، بل ويدعو إليه، إذ لم يكن القصد من إرسال الرسل، كما يقول «بولس» غير التبشير المقصور على الدعوة إلى الإيمان، ووصايا الحياة الدائمة، ومن ثم «ترك المبشرون تفصيل الأمور السياسية فى الأقاليم لرؤسائها، لأن من يدعو الناس إلى ترك القنية بالكمال، لا يضع لهم قوانين مفصلة فى أحكام

المقارضات والمشاركات، ومن يندبهم إلى ترك الزواج، لا يرتب لهم أحكامه، ومن ينهاهم عن محبة العالم وما فيه لا يقرر لهم معاملاته».

وقد عاش ابن العسال فى عصر ازدهرت فيه دراسات الفقه الإسلامى، وانتهت إليه ذخائره، منذ جاء صاحب التشريع محمد ﷺ، وصحابته الكرام ومن تبعهم، ثم أصحاب الرأى والاجتهاد ورؤساء المذاهب ثم العلماء الذين قلدوهم وساروا على هديهم، وترسموا خطاهم، ولم يجدوا إلا سبيل التقليد والاتباع، فاستفاد ابن العسال من هذه الثروة الفقهية، وتأثر بها، وانعكس هذا التأثير على (المجموع الصفوى) وترى ذلك فى المصطلحات التشريعية التى استمدها ابن الغسال من أحكام الفقه الإسلامى مثل: الفضيلة، والفرض، والواجب والمندوب، والمستحب، والمكروه، والمنهى عنه.

* شخصية مستقلة

فهو حين يعالج مسائل المعاملات المالية مثل القرض والرهن والكفالة والضمان يستفيد من المراجع المسيحية إذا تيسرت له الاستفادة ، كما يستفيد من كتب الفقه الإسلامى فى اكثر ما كتب، ولكنه لا يقف عند حد النقل، بل تظهر شخصيته فى إحسان الأخذ، وإحكام التنسيق، والمواءمة بين هذه المصادر المختلفة، وتبرز آراؤه الخاصة واضحة بينة لتدل على اتجاه معين أو تشير إلى فكرة مستقلة. وعلى سبيل المثال. ظفر باب «الرهن» بعظيم العناية فى كتب الفقه الإسلامى، شأن غيره من أبواب التشريع التى لاقت هذه العناية من الفقهاء، وكانت هذه الكتب هى المرجع الوحيد الذى يرجع إليه الناس فى تلمس مسائل التشريع وأحكامه، ولم تكن هناك كتب وضعية أجنبية قد ألفت بعد فى

هذا المجال، فكان من الطبيعى أن يتجه ابن العسال اليها حين أراد أن يكتب عن مسائل الرهن، ولم تكن لدى ابن العسال مراجع مسيحية أو غيرها تفيد فى هذا المجال، ومن ثم اعتمد كل الاعتماد على مادرس من كتب الفقه الإسلامى، واختار لنفسه تنظيما خاصا صاغ فيه مواد هذا الباب لم يجر عليه غيره من المشرعين، وهذا لون من ألوان الشخصية الخاصة، بجانب شئ آخر هو العدول عن بعض أحكام الفقه الإسلامى أو ترجيح آراء بعض الفقهاء، وإن كان من الصعب هنا الفصل بين ما قلد فيه ابن العسال غيره، وما ارتضاه لنفسه ، أو عدل به لجانب آخر، ذلك أن المسألة الواحدة قد تضم عدة جوانب يلاحظ فيها أكثر من وجه من وجوه الرأى، قلد فيها ابن العسال، ورجح بعض الآراء، أو عدل فيها، وهو فى جميع الأحوال صاحب شخصية مستقلة تظهر فى تلوين ما يختار من أحكام، ويفيض على الأحكام من أفكاره الخاصة ما يراه.

وفى موضوع الكفالة والضمان تظهر الصلة بين ابن العسال، وبين مصادره المرجح رجوعه إليها، وليس من المغالاة القول بأن ابن العسال يكاد يكو ن اقتبس نصوص مصادره، لم يدخل عليها غير يسير من تحوير الصيغة، وتغيير العبارة لا يخرجها عن أصولها روحاً، ولا يبعدها عنها صورة أيضا، وابن العسال يتوخى الإيجاز فى صوغ الحكم التشريعى، يتلمسه حيث يكون، أو يصنعه هو حيث لا يسعفه إيجاز المصدر ووفاؤه بهدفه، وقد ظهر فى أكثر من موقع من بحث الدكتور عبدالسميع محمد أحمد اتصال ابن العسال بكتاب «المهذب» لفقيه الشافعية «الشيرازى» وكتاب «المختصر» للقدورى فى فقه الأحناف، فإذا اختار للشيرازى اقتبس أصل الحكم وترك المناقشة والتمثيل

والتفريع، وإذا اختار للقدورى اقتبس نفس النص أو صنع فيه القليل من التغيير، ذلك أن كتاب القدورى من أهم كتب الفقه الحنفى الحافلة بأصول التشريع المتجنبة للتفصيل والشرح، وهو مع ذلك الإيجاز واضح العبارة، جلى الصورة، حقق كثيرا من أغراض ابن العسال، ويكاد ابن العسال فى موضوع الكفالة والضمان يتابع القدورى فى باب الكفالة، ولم يختلف عنه إلا فى أمر واحد، ذلك أن ابن العسال قدم ضمان المال على كفالة النفس، على غير ما فعل القدورى وتابعه فيما عدا ذلك من مسائل وأحكام.

* المداينات:

وفى موضوع «التداين» يستلهم ابن العسال أحكامها الخلقية من الكتب المقدسة، فيدعو الناس إلى عدم الإجحاف بالمعسر، وإلى عدم الإضرار بالمدين المعدم، ويستفيد من كتب التشريع الإسلامى فى هذا الجانب الإنسانى، ولكن الأحكام التشريعية الدقيقة التى لم تعرض لها الكتب المقدسة بالتفصيل، يستمدها ابن العسال من كتب التشريع الإسلامى وقد أفاضت فى الحديث عنها، وتجدها فى أبواب مستقلة كما فعل الشيرازى فى باب «التسليف» وكما فعل أبو جعفر الطحاوى فى باب «المداينات».. ويتنقل ابن العسال بين هذه المصادر الإسلامية فيختار من أحكامها.. يتابع هذا العالم فى موضع، ويخالفه إلى رأى غيره فى موضع آخر، مع التماس الإيجاز فى العبارة، والاختصار فى صوغ الحكم، ليكون أشبه بما يريد لكتابه من إيجاز واختصار. ولا يقتبس ابن العسال هنا نصوص الكتب الإسلامية على نطاق واسع، كما صنع فى أحكام الكفالة والضمان، وإنما يكتفى بفهم النص، ومتابعة الرأى الذى يرتاح إليه.

تحفة النظار

لابن بطوطة

ابن بطوطة هو أشهر رحالة في تاريخ العرب والمسلمين، ولا يضاهيه فى الشهرة أحد من الرحالة الذين جابوا الآفاق، وسجلوا مشاهداتهم فى كتب قيمة من أمثال المسعودى صاحب (مروج الذهب) والبيرونى فى (تاريخ الهند) وابن جبير صاحب الكتب الوصفية عن بلاد الشرق، وياقوت الرومى صاحب الكتاب الجليل (معجم البلدان). وترجع ميزة ابن بطوطة إلى سخاء المعلومات، ودقة الوصف، وجاذبية العرض، ولا عجب إذا عرفنا أن رحلاته الثلاث استغرقت ثلاثين سنة قضاها فى الطواف حول العالم المعروف فى زمانه من ساحل المحيط الأطلسى إلى بلاد الصين ومن بلاد الأناضول والأندلس الى قلب القارة الأفريقية.

أما رحلته الأولى فكانت عام ١٣٢٥م بقصد آداء فريضة الحج وعمره يومئذ ٢٢ سنة فخرج من مسقط رأسه (طنجة) فمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر، ثم قصد إلى (عيذاب) على البحر الأحمر ليعبره إلى الحجاز، ولم يتهيأ له ذلك بسبب الحرب التى كانت قائمه بين المماليك وقبائل البجة، فعاد إلى الفسطاط، ثم رحل عنها إلى فلسطين ولبنان وسوريا والحجاز، فحج حجته الأولى، ومن مكة سافر إلى العراق وإيران وبلاد الأناضول، ثم عاد إلى مكة فحج حجته الثانية أقام بها سنتين، ثم غادرها إلى اليمن واجتاز البحر إلى أفريقيا الشرقية، ثم عاد منها مارا بجنوب الجزيرة العربية حتى الخليج العربى، فزار عمان والبحرين والاحساء، ثم رجع إلى مكة فحج حجته الثالثة، ثم خرج من مكة إلى بلاد الهند، فمر بخوا رزم وخراسان وتركستان وأفغانستان وكابول والسند، وفى دهلى تولى القضاء على المذهب المالكى للسلطان محمد شاه، ولما أراد السلطان أن يبعث وفدا إلى ملك الصين خرج ابن بطوطة فيه، وفى عودته مر بجزيرة سرنديب وجزائر الهند والصين، ومن ثم عاد إلى الجزيرة العربية عن طريق سومطره، فزار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين. ومنها إلى مكة فحج حجته الرابعة. وبعد هذا رأى أن يعود إلى وطنه فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش فوصل فاس سنة ١٣٤٩ بعد غيبة ٢٤ سنة.

نزعة التجوال:

ويبدو أن نزعة السفر والتجوال تغلبت على ابن بطوطة. فلم يمكث فى بلده طويلا حتى شد الرحال إلى بلاد الأندلس، فزار جبل طارق وغرناطة ثم عاد إلى فاس، وبعد استراحة قصيرة بدأ رحلته الثالثة إلى

قلب القارة الافريقية عبر الصحراء الكبرى، فخرج من سجلماسة إلى تفازا ومنها إلى مالى وزاغرى وكارسخو وتمبكتو وتكدا وهكار، فكان أول رحاله يكتشف هذه المجاهل، ويقدم إلى علم الجغرافيا البشرية والطبيعة زادا وفيرا.

وفى كل هذه الجولات لم يكن ابن بطوطة يسجل مشاهداته على الورق، وإنما يرويها للناس حيثما ألقت به عصا التسيار، ويحدثهم بما رأى من عجيب صنع الله فى خلق الحيوان والنبات وما شاهده من أخلاق الأمم وعاداتهم وأحوالهم وكان الناس يستمعون إليه بين مصدق ومكذب، وكان حساده يتربصون به ويتهمونه بالكذب والتلفيق، ويصفون أحاديثه بأنها خرافة وافتراء. ولكنه يلقى الإنصاف والتأييد من معظم الناس، حتى انتهى به المصير إلى حاشية السلطان أبى عنان أمير دولة بن مرين بالمغرب الأقصى، وشغف الأمير بالمعلومات الغزيرة التى يرويها ابن بطوطة، ورأى أنها تستحق التسجيل حتى تنتفع بها الأجيال التالية، وخصص له كاتبا اسمه محمد بن جزى ليكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة. وكان من حصيلة ذلك كتابه الرائع الذى اطلق عليه اسم: (تحفة النظار، فى غرائب الأمصار، وعجائب الاسفار) وقد تداولت الأيدى هذا الكتاب، وانكبت على قراءته، ومطالعة ما يحويه من غرائب وطرائف حتى يقول عنه العلامة ابن خلدون: كان ابن بطوطة يسجل ما رأى من العجائب بممالك الأرض. واكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتى من أحواله بما يتعجب منه السامعون مثل: ان ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان. وفرض لهم الرزق (الراتب) ستة أشهر

من عطائه، وانه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافه إلى صحراء البلد ويطوفون به، وينصب أمامه فى ذلك الحفل منجنيات (أشبه بالمدفعية فى عصرنا) ترمى بها شكائر الدنانير والدراهم على الناس إلى أن يدخل إيوانه.. وأمثال هذه الحكايات. فتناجى الناس بتكذيبه»

* صدق أقواله:

وليس ابن خلدون أول من شك فى روايات ابن بطوطة، فقد أبدى كاتب الرحلة - ابن جزى - الشك فى بعض ما نقله الرحالة وقال: وقد أوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختيار.

أما علماء المستشرقين فقد عنوا بدراسة أقوال ابن بطوطة، وفحصوها فحصا علمياً عن طريق المقارنة مع الرحالة الأوربيين فى عصره، فثبت لهم صدق اقواله وخلوه من التزييف أو الغلو، ولو ظهر لهم كذب روايته أو غلوه فيما نقله من الأخبار لنشروه وأذاعوه. ولكنهم تأكدوا من صدقه، وجعلوا من كتابه مرجعا ومصدرا لمعرفة أحوال الشعوب الشرقية فى القرن الرابع عشر الميلادى. ولقى ابن بطوطة التقدير والثناء من علماء اوروبا، وشهدوا له بالفضل على العلم والأدب. ويتساءل الرحالة الشهير والعالم الكبير (سيتزن): أى سائح أوروبى يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة فى البحث، لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة، وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة!! بل أى أمة أوروبية كان يمكنها منذ خمسة قرون أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد

الأجنبية، وفيه من الاستقلال بالحكم، والقدرة على الملاحظة، والدقة في الكتابة، ما لهذا الرحالة العظيم؟ إن ما جاء به من المعلومات الصحيحة عن جهات إفريقية المجهولة لا يقل في فائدته عن معلومات «لاون» الأفريقي، أما جغرافية بلاد العرب وبخاري وكابول وقندهار، فقد استفادت من الرحلة كثيرا، وفيما كتبه عن الهند وسرنديب من المعلومات المفيدة، ما يدعو انجليز الهند إلى قراءته، فإن فيه ما يفيدهم في سياستهم

وكان ابن بطوطة من الأمانة بحيث لا يسمح لنفسه بانتحال اسم مكان ليس متأكدا منه، كما يفعل بعض الذين يسوقون الحكايات تسلية للسامعين، فإذا نسى شيئا من المعلومات لا يتردد في أن يقول: قد أنسيته، ومن هذا نعلم أن رحالتنا العربي الشهير كان يجتهد في تحرى الحقيقة، ويشعر بأنه سيحاسب بما يقول. وحسبه أن العلامة (دوزى) سماه: «الرحالة الأمين».

«يا أيها الرجل: لا تخدعنّ كما خُدع من قبلك. فإن الذى أصبحت فيه من النعم إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك فلو بقيت الدنيا للعالم لم تصر للجاهل، ولو بقيت للأول لم تنتقل إلى الآخر»

«الطرطوشى»

سراج الملوك للطرطوشى

يشغل الفكر السياسى فى تراث الاسلام حيزا كبيرا إلى جانب فروع النهضة الثقافية الأخرى كالفقه والفلسفة وعلم الكلام والتصوف والأدب والتاريخ وغيرها، وكان أمرا طبيعيا أن تحظى السياسة بقدر كبير من اهتمام المسلمين، لأن موضوعها الأساسى تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكومين على القواعد التى قررها الإسلام مثل العدل والإنصاف والشورى والمساواة، وكان من شأن الأحداث والفتن التى تعرض لها المجتمع الإسلامى فى وقت مبكر أن تثير اهتمام الناس بالسياسة ليبحثوا عن جواب للسؤال الخالد: لمن الحكم؟ وكان الشيعة أول من عالج هذه القضية من منطلق فكرتهم الخاصة عن «الإمامة» فجمعوا البراهين الدينية والعقلية التى تثبت أحقيتهم فى الحكم، ووضعوا نظرية «النص» على الأئمة فى السلالة العلوية وعصمتهم، بحيث لا يترك الاختيار إلى مجموع الأمة، وكان من شأن هذا التحديد الجبرى أن يثير مسألة الحكم

على نطاق واسع، فظهر المعتزلة لينقضوا فكرة الجبر ويؤكدوا حرية الارادة الإنسانية فى الاختيار، ورغم أن السياسة لم تكن قضيتهم الأولى، إلا أنهم خاضوها من باب النظر العقلى ووضعوا نظريتهم فى الحكم وشروط اختيار الحاكم ومحاسبته وعزله وجواز الثورة عليه، أما الخوارج فقد رفضوا فكرة الوراثة من أساسها بما فيها فكرة القرشية أى ضرورة أن يكون الخليفة قرشيا وجعلوه متاحا لأى مسلم تتوافر فيه الشروط حتى لو كان عبدا على رأسه زبيبة.

توالى ظهور الفرق والأحزاب التى دخلت المعترك بما لديها من افكار وآراء مما أدى إلى إثراء الفكر السياسى بروافد متنوعة، ومع توالى السنين وتطور الأحداث تبلورت الآراء فى قوالب نظرية وقوانين تحدد قواعد الحكم وأصوله، وأثمرت الحياة الثقافية كوكبة من العلماء الذين تناولوا قضايا السياسة كل بطريقته الخاصة، منهم من سلك مسلك الوعظ والنصيحة للحاكم حتى لا يجور ولا يخرج على حدود الشرع، ولا يحبذون الثورة على الحاكم ولو كان ظالما، حفاظا على وحدة الأمة، وتجنيبها الوقوع فى الفتن الدموية. ومن العلماء من وضع أفكاره فى قوالب قانونية مستقاة من تعاليم الاسلام النظرية ومن الواقع الذى عاشته الامة الاسلامية.

ومن مجموع أفكار هؤلاء وأولئك توفر لدينا تراث سياسى خصب، نجده فى تضاعيف الكتب، وهى من الكثرة بحيث يصعب حصرها، نذكر منها على سبيل التذكار: الامامة والسياسة، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والأحكام السلطانية للماوردى، والتبر المسبوك فى نصيحة الملوك للامام الغزالى، والمنهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى، والفخرى

فى الآداب السلطانية لابن طباطبا، ثم تصل هذه الكوكبة إلى ذروتها عند ابن خلدون فى القرن الثامن الذى بهر عالم الفكر السياسى بنظراته الثاقبة فى مقدمته الشهيرة.

فن السياسة والحكم:

والكتاب الذى أقدمه لك اليوم هو كتاب «سراج الملوك» للامام أبى بكر الطرطوشى المتوفى فى الاسكندرية عام ٥٢٠ هجرية، وهو كتاب فى فن السياسة والحكم وما يجب أن يكون عليه الراعى والرعية، استمد مادته من كتب التاريخ والأدب والأسمار، وأورد فيه من الطرائف والنوادر ما يؤيد به قضاياه فى السياسة والإدارة والأخلاق وتدبير الممالك والتعامل مع الناس، فجمع الكتاب بين مكارم الأخلاق والمروءة العربية الاسلامية والسلوك المستقيم.

وقد ألف الطرطوشى كتابه هذا عام ٥١٦هـ وقدمه هدية إلى الوزير المأمون البطائحى ليكون نبراسا يهتدى به الوزير فى إدارة شئون الدولة الفاطمية وهى تعانى سكرات الاحتضار بعد سلسلة الفتن التى تعرضت لها مصر فى آخريات العصر الفاطمى، ولو لاحظت دلالات التواريخ فسوف تكتشف أن الطرطوشى أنجز مهمته العلمية قبل خمسين سنة من زوال الدولة الفاطمية وسقوطها فى براثن البطل صلاح الدين الأيوبى، وقد توخى الطرطوشى أن يكون كتابه دستورا للحكام والمحكومين على السواء، وأن يحدد فيه حقوق الطرفين فلا يتجاوز حده، ولا يتعدى حقه، وليدفع به الأمة الاسلامية نحو هدف فيه صلاح أمر العرب والمسلمين، وليعلى فيه شأن القيم الخلقية التى تحث على الفضائل عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة.

والنسخة التى أقدمها لك هى الجزء الأول من الكتاب، وهو من منشورات «الدار المصرية اللبنانية» وكتب له المقدمة العلامة الدكتور شوقى ضيف، أما مهمة التحقيق والضبط والتعليق ووضع الفهارس فقد قام بها خير قيام الأستاذ محمد فتحى أبو بكر. وتتصدر الصفحة الاولى من الكتاب عبارة للطرطوشى هذا نصها: «ليس العجب ممن قرأ كتابى هذا وصار مهذبا كاملا.. إنما العجب ممن قرأه ولم يصر مهذبا كاملا». فهو يفترض فى قارئه ان يتشرب ما فى الكتاب من فضائل ومثل عليا، ويتأثر بما يحتوى عليه من حكم ومواعظ، فيتطهر من العيوب والمثالب، وينحو إلى الكمال، وهى عبارة تكشف عن منهج المؤلف فى مخاطبة الجانب الخلقى فى الانسان، وعن طريقه يمكن تحريك سلوك الفرد نحو الفضائل فيستقيم أمر المجتمع.

ويحدد الدكتور شوقى ضيف جوهرين أساسيين فى كتاب سراج الملوك هما:

عرض سير الملوك والحكام الماضين، وما أحكموه من السياسات فى قواعد الحكم وأركانه ونظمه السديدة التى دبروا بها شئون الأمم السالفة بحيث ساد فيها العدل والأمن والرخاء، وعرض جوانب من ينابيع الحكمة والسياسة فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، مع كلمات جامعة للأنبياء والعلماء والحكماء والوعاظ، مما ينبغى أن يتحلى به الحكام والناس فى سلوكهم بحيث تطيب الحياة ويصلح المجتمع، فلا تحاسد، ولا تباغض، ولا أثرة، ولا غيبة، ولا نميمة، مع العفو والمغفرة عند المقدرة، والعمل للدنيا والآخرة، ومع الوفاء، والحلم، والصبر، والعفاف، والانصاف، والبر، والتمسك بالخصال الحميدة، والنفور من

الخصال الذميمة، ووضع ذلك كله تحت أعين الحكام فى عصره ليتخذوا منه منارات هادية فى حكمهم.

سيرة الطرطوشى:

وقبل أن أحدثك عن الكتاب أقدم لك نبذة عن سيرة المؤلف، لأن سيرته العطرة لاتقل روعة عن ثمرات عقله، ومن حسن حظنا أن كتب التراجم القديمة والحديثة فاضت بسجل حياته الطيبة، ولايزال ضريحه فى الاسكندرية مزارا معروفا، وقدم المحقق الاستاذ: محمد فتحى أبو بكر ملخصا لحياة الطرطوشى استقاها من المراجع القديمة مثل وفيات الأعيان لابن خلكان، وبغية الملتمس للضبى، والصلة لابن بشكوال، وهما مؤرخان من الأندلس مسقط رأس الطرطوشى، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، وشذرات الذهب لابن العماد الجنبلى، والمغرب من حلى المغرب لابن سعيد ومعجم البلدان للحموى وغيرها.. أما المراجع الحديثة التى ترجمت الطرطوشى فأبرزها كتابان للدكتور جمال الشيال هما: أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى، وأبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر، الذى صدر فى سلسلة اعلام العرب رقم ٧٤ وقد اعتمد المحقق على هذين الكتابين فى تلخيص سيرة المؤلف الطرطوشى، بالاضافة إلى كتاب تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى للدكتور السيد عبد العزيز سالم عن دار المعارف، وكتاب أعلام التصوف الاسلامى للاستاذ أحمد أبو كف عن دار الهلال، وفيما يلى ملخص سيرة المؤلف:

هو العالم الفقيه والزاهد الورع محمد بن الوليد بن أيوب القرشى الفهرى الطرطوشى المعروف بابن أبى رندقة، ولد فى عام ٤٥٠

هجرية «نفس سنة مولد حجة الإسلام الغزالي» في مدينة طرطوشة الأندلسية الكبيرة، وهي مدينة تجارية عظيمة، بها أسواق وعقارات وضياع، ودرج في هذه المدينة ينعم بجمالها الطبيعي الملهم.

وفي سنة ٤٧٦ غادر الطرطوشي وطنه، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وبدأ رحلته إلى الشرق. فذهب إلى مكة فأدى فريضة الحج واستقر بها قليلا حيث ألقى بعض الدروس ثم نزح منها إلى بغداد، وهي في ذلك الوقت مركز من أكبر مراكز العلم في العالم الاسلامي، وكانت محط رحال العلماء، يفدون عليها من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب، فكان لأبي بكر الطرطوشي ـ وقد رضيت نفسه بأداء فريضة الحج ـ أن يرحل إليها ليستكمل دراسته، ويتصل بعلمائها الأعلام، ويتتلمذ عليهم ويأخذ عنهم.. وكان يلي أمور الشرق في ذلك الوقت «نظام الملك» وزير الملكين السجلوقيين: ألب أرسلان، وملك شاه.. وهو وزير عالم، يحب العلم والعلماء، ويقربهم إليه، ويغدق عليهم العطايا.. وقد شهد الطرطوشي أثناء مقامه في بغداد آثار هذه السياسة العلمية الحصيفة التي اصطنعها لنفسه وللدولة، وأشاد بذكرها في «سراج الملوك».

وفي بغداد أيضا اتجه الطرطوشي إلى التصوف حيث كان الفكر الصوفي متأصلا على يد أقطابه، وقد درس التصوف هناك ونبغ فيه، حتى عده من تحدث عنه من المتصوفة الزاهدين، ولا غرابة في ذلك، فإن الحياة التي كان يحياها في بغداد، وما شاهده فيها من زهد، وتقشف العلماء الذين أخذ عنهم، قد أثر فيه تأثيرا كبيرا، فقد كانوا برغم تضلعهم في الفقه والعلوم الدينية ـ من المتصوفة الذين يعتقدون أن

الحياة نعيم زائل، وكانوا يفرغون لحياة كلها زهد وتقشف وعبادة وذكر لله، هذا بالإضافة إلى الشعر الذى سمعه من شيوخه العراقيين ورواه عنهم فيما بعد فى «سراج الملوك» يضرب كله المثل بالأمم الغابرة، ومابنت من قصور، وما زينت من عمائر، وكيف انتهى كل هذا الزخرف إلى زوال.

هذا الكوز:

وقد روى الطرطوشى - فى هذا الكتاب - حديثا جرى بينه وبين أحد العراقيين، هز كيانه هزا، قال: «وهأنذا أحكى لك أمرا أصابنى وطيش عقلى، وبلبل فكرى، وقطع نياط قلبى، فلا يزال يراه حتى يوارينى التراب، وذلك أنى كنت يوما بالعراق، وأنا أشرب ماء، فقال صاحب لى - وكان له عقل: يافلان، لعل هذا الكوز الذى تشرب فيه الماء قد كان إنسانا يوما من الدهر، فمات، فصار ترابا، فاتفق للفخارى أن أخذ تراب القبر وضربه خزفا، وشواه بالنار، فانتظم كوزا كما ترى، وصار آنية يمتهن ويستخدم بعد أن كان بشرا سويا يأكل ويشرب وينعم ويلذ ويطرب...»

هذه النظرة الفلسفية العميقة إلى الانسان وحقيقته ومصيره: كيف خلق؟ ومم خلق؟ وكيف ينتهى؟ والى أين يصير؟.. هذه النظرة الفلسفية هزت كيانه وجعلته يدرك ماوراءها من حقيقة، فاستطرد فى حديثه يؤكدها ويحللها تحليلا يؤكد إيمانه بها.. قال:

«فإذا الذى قاله - أى صاحبه - من الجائزات، فإن الانسان إذا مات عاد ترابا كما كان فى النشأة الاولى، ثم يتفق أن يحفر لحده، ويعجن

بالماء ترابه، فيتخذ منه آنية فتمتهن فى البيوت، أو لبنة فتبنى فى الجدار، وقد يجوز ان يغرس عند قبره شجرة، فيستحيل تراب الإنسان شجرة وورقا وثمرة، فترعى البهائم أوراقها، ويأكل الانسان ثمرها، فينبت منها لحمه، وينشر منها عظمه، او تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم، فبينما كان يقتات صار قوتا، وبينما كان يأكل صار مأكولا، ثم يعود فى بطن الانسان رجيعا فيقذف فى بيت الرحاضة، أو بعرا ينبذ بالعراء، ويجوز إذا حفر قبره أن تسفى الرياح ترابه فتتفرق اجزاؤه فى بطون الأودية والتلول والوهاد...»

هذا الحديث الذى ألقى إلى الطرطوشى أثناء مقامه فى بغداد، وهذا التعليق الذى راح يحلل به الحديث ويؤكده فى «سراج الملوك»، وهذه اللفتة جعلته يكون لنفسه فلسفة خاصة بدأ يعتنقها فى ذلك الحين، هى فلسفة الزهد والعزوف عن اللذات والشهوات، والجرأة على كل كبير فى سبيل الحق، وفى سبيل تدعيم أوامر الله - سبحانه وتعالى - فهو ينظر إلى كل كبير بهذه النظرة التى لا ترى فيه قوته وسلطانه وجبروته، ولكنها ترى فيه قيمته ومصيره، وأنه لن يكون بعد الموت إلا كوزا يشرب فيه الماء، أو مايشبه ذلك مما تقدم!! (عن كتاب الدكتور الشيال) .

وسيلتزم الطرطوشى، منذ يغادر العراق، وفيما يقبل من أيامه هذه الحياة، حياة الزهد والبعد عن مباهج الدنيا. وذهب الرجل إلى الشام بعد أن أتم دراسته وبعد أن حصل من العلوم ما حصل، وبعد أن بلغ من النضج الفكرى درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه، وبعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة قوامها الزهد، والسعى للأمر بالمعروف والنهى عن

المنكر، وقد اجمعت المراجع التى ترجمت له أنه قضى الفترة التى عاشها فى الشام يعلم الناس، فأقبلوا عليه، وأحبوه، وأفادوا من علمه، فعلا اسمه، وبعد صيته، وأنه عاش هناك متقشفا عابدا زاهدا، منقبضاً عن الناس، إذا أكل ففى شقف من الفخار.. وكان أصحاب الحكم والسلطان.. يسعون إليه وإلى بره، ولكنه كان ينصرف عنهم، ويشتد عليهم فى القول وإسداء النصيحة.

ويبدو أن نفسه الأبية، وصراحته، والتزامه القول الحق أثارت ضده بعض الشانئين والحاسدين من أهالى بيت المقدس، فسعوا به لدى حاكمها، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه، واستدعاه الحاكم إليه، فلم يأبه لدعوته، ورفض أن يذهب، وراموا الغض من حاله فلم ينقصوه قلامة ظفر.

قال عنه ابن فرحون: «.. وسكن الشام مدة، ودرس بها، ولازم الانقباض والجماعة، وبعد صيته هناك، وأخذ عنه الناس هناك علما كثيرا، وكان إماما عالما، عاملا زاهدا، ورعا دينا، متواضعا متقشفا، متقللا، من الدنيا، راضيا باليسير منها، وتقدم فى الفقه مذهبا وخلافا.. وكان له ـ رحمه الله ـ نفس أبية، قيل إنه كان ببيت المقدس يطبخ فى شقف، وكان مجانبا للسلطان، معرضا عنه وعن أصحابه، شديدا عليهم مع مبالغتهم فى بره».

فى القدس:

وأقام الطرطوشى مدة فى بيت المقدس ـ ثم تركها إلى جبل لبنان، فقضى به مدة أخرى.. ولسنا نعرف أى المدن الشامية زار الطرطوشى

- غير بيت المقدس وجبل لبنان - ولكن من المرجح أنه زار دمشق واقام بها، وانه طوف فى معظم مدن الشام الاخرى، وأنه ذهب فى تطوافه إلى أقصى الشمال، فزار حلب، ثم انحدر منها إلى انطاكية فى أواخر عام ٤٩٠هـ وفى هذه السنة كانت الحملة الصليبية الأولى التى وفدت على الشرق، واستولت على مدن الشام الشمالية الواحدة بعد الأخرى، وظلت تحاصر مدينة أنطاكية نحو ثمانية اشهر إلى أن سقطت فى جمادى الأولى بسنة ٤٩١هـ.

واغلب الظن أن هذا الحادث الخطير، واستيلاء الصليبيين على سواحل الشام كلها، وبيت المقدس فى السنة نفسها، هو الذى دفع الطرطوشى إلى ترك الشام، وأنه غادرها منذ ذلك الحين واتجه إلى مصر، ونزل - أول ما نزل - فى مدينة «رشيد» ثم غادرها إلى مدينة «الاسكندرية» حيث اتخذها مقرا له بعد أن قضى فى الشام حوالى عشر سنوات يطوف بمدنه الكبرى، فإنه وصل إليه حوالى سنة ٤٨٠هـ وهو فى الثلاثين من عمره - وغادره سنة ٤٩٠هـ - وهو فى الأربعين من عمره ووصل إلى مصر، وهى يومئذ تحت حكم الفاطميين الشيعة الذين جعلوا من المذهب الاسماعيلى الباطنى مذهبا رسميا للدولة، ورغم ذلك كان زمام الحكم الفعلى فى يد الوزير السنى الأفضل شاهنشاه. وكان من شأن هذا التناقض المذهبى أن عرض البلاد إلى صراعات وفتن داخلية، خاصة وأن مصر كانت تعانى من آثار المجاعة التى أخذت بخناقها بسبب قصور النيل لمدة سبع سنين. وهى المعروفة فى التاريخ باسم الشدة المستنصرية لوقوعها فى عهد الخليفة «المستنصر» وما صاحبها من فوضى وتناحر بين الفرق العسكرية مما دفع المستنصر

إلى الاستعانة بوالي عكا القوي بدر الجمالي. فدخل مصر على رأس جيشه. وقضى على رؤوس الفتنة. وجمع كل السلطات في يده، ثم طمع في أن يعيد مصر إلى حظيرة السنة عن طريق المصاهرة مع «المستنصر» فأغراه بالزواج من ابنته التي أنجبت له ولدا هو «المستعلي». وفي عام ٤٨٧هـ، قبل ثلاث سنوات من قدوم الطرطوشي إلى مصر، مات الجمالي فحل محله ابنه الأفضل في الاستبداد بشئون البلاد. وبعد شهور مات المستنصر، وكان المفترض أن يخلفه ابنه الأكبر (نزار) طبقا لنظام الوراثة الشيعي الذي يجعل الامامة في الأعقاب، ولكن الافضل دبر انقلابا داخل القصر ووضع ابن اخته (المستعلي) على العرش، ورفض نزار هذا الانقلاب وهرب إلى الاسكندرية ونظم جيشا لمقاومة الافضل، وتحولت الاسكندرية إلى ميدان للقتال بين قوات نزار وقوات الافضل، انتهى السجال بينهما بمقتل نزار وانفراد الافضل بكافة السلطات. وفي أثناء هذه الاضطرابات فقدت الاسكندرية معظم علمائها وفقهائها حتى صارت المساجد شبه خاوية من الوعاظ والأئمة.

وفي هذه الفترة المشحونة بالفوضى والاضطراب وصل الفقيه الطرطوشي إلى مصر واستوطن مدينة رشيد دون أن يخطر على ذهنه سكنى الاسكندرية لما تعج به من صخب وصراعات لا توافق مزاجه الصوفي وميله إلى العزلة والتفرد.

وصحب الطرطوشي معه إلى مصر رجلا من عباد الله الصالحين اسمه عبد الله السايح تعرف عليه في جبل لبنان أثناء إقامته هناك، وكان الطرطوشي يعتز بصداقة هذا المتعبد الزاهد، فعقد النية على

اصطحابه معه إلى مصر، ولكن هذا الشيخ «السايح» رفض، واحتج بأنه يعيش فى المباح من ثمر الأشجار، ويأكل الحلال، وبذلك يتمكن من التفرغ للعبادة، ولا يضمن أن يجد مكانا آخر تتوفر فيه هذه الشروط، والقصة يرويها الضبى المؤرخ فى الأندلس فى بغية الملتمس فيقول:

«.. ثم أراد الحافظ أبو بكر ـ الطرطوشى ـ أن يقصد مصر، فعرض على أبى محمد السايح صحبته والمشى معه، وقال له: أنت هاهنا بمعزل ولا تلقى أحدا ولا يلقاك، وإن مت لم تجد من يواريك، وفى مخالطة الناس ومقابلتهم، ونشر العلم، وحضور الجماعة فى الجمعة مالا يخفى عليك.. فقال له عبد الله: أنا ها هنا آكل الحلال، وأعيش فى المباح من ثمر هذه الأشجار، ولا أجد فى غير هذا الموضع من المباح ما أجد فيه» . فالطرطوشى يلتزم بما يلتزم به المتصوفة من إقبال على الزهد والتقشف، والعبادة وذكر الله، ولكنه لا يؤمن بما يؤمن به بعضهم من العزلة والبعد عن الناس، بل هو يرى أن الخير ـ كل الخير ـ فى مخالطة الناس ومقابلتهم، ونشر العلم، لهذا لم يزل بصديقه السايح يحاوره ويحاول أن يقنعه بالرحلة معه إلى مصر، فقال له إنه يعلم أن بمصر مدينة تسمى «رشيد» فيها من المباح الذى ينشد: الملح والحطب، وأنهما يستطيعان أن يجمعا من هذين المباحين ما يمكنهما من العيش.. وكان الشيخ عبد الله السايح يعلم أن صديقه «الطرطوشى» رجل فقيه، يشتغل بالتدريس، ويحب أن ينفع الناس بعلمه، والناس تقبل دائما عليه، فأعلن لصديقه خوفه أن يدفعه هذا النوع من الحياة إلى البعد عنه ومفارقته، وبذلك يكون قد تجشم مشقة الانتقال من لبنان الى مصر بدون مبرر.. ولكن الطرطوشى طمأنه، وعاهده ألا يفارقه أبدا.

وركبا الطريق إلى مصر حتى وصلا رشيد، وأقاما هناك، فإذا احتاجا إلى قوت جمعا الحطب أو الملح ويحملانه على ظهريهما ثم يبيعانه ويأكلان بثمنه، وبقيا فى رشيد لايدرى أحد عنهما شيئا حتى تسامع أهل الاسكندرية بوجود الطرطوشى الفقيه فى رشيد، فركب إليه قاضيها يستدعيه إليها، وجاء وفد الاسكندرية ـ المكون من أعيانها يتقدمهم قاضى المدينة ـ ابن حديد ـ الى رشيد، وظلوا يبحثون عن أبى بكر الطرطوشى إلى أن رأوه مقبلا عليهم من أطراف المدينة، وفى صحبته الشيخ الزاهد عبد الله السايح، وكل منهما يحمل على ظهره حزمة من الحطب، وألقى الطرطوشى ما على ظهره وجلس يستمع إلى رجال الوفد السكندرى، فأخبروه بما وصلت اليه أحوال المدينة من تدهور، وما أصاب مجالس العلم فيها من ضمور، وألقوا إليه رغبتهم فى أن ينتقل معهم إلى الاسكندرية ليفيدوا من علمه.

وتجددت المشكلة القديمة، فالطرطوشى لا يريد مفارقة أخيه السايح، والشيخ الزاهد لايريد مغادرة رشيد، فهو فى الاسكندرية لا يستطيع أن يعيش فى الحلال ويأكل المباح كما يفعل فى رشيد، ولكن وفد الاسكندرية لم يعجز عن إيجاد حل لهذه المشكلة.. ورحل الإثنان إلى الاسكندرية.

مرحلة النضج:

استقر بالطرطوشى المقام فى الاسكندرية، واتخذها وطنا ثانيا ودار مقام، وبدأ يدرس وينشر العلم على مذهبه ـ مذهب الامام مالك ـ وتقاطر الناس على حلقاته يأخذون عنه، ويقرأون عليه، ويفيدون من علمه.. ولم يلبث إلا قليلا حتى عرف واشتهر، واجتذب الطلاب والعلماء إلى حلقات درسه.. وتزوج بعد قليل من سيدة تقية فاضلة

دينة، من بيت من أكبر بيوت الاسكندرية - وقت ذاك - فضلا وعلما وجاها وثروة، بيت بني عوف، فهي خالة فقيه الاسكندرية وكبير علمائها أبي الطاهر بن عوف - تلميذ الطرطوشي وخليفته فيما بعد - وكانت متزوجة قبله.. فأطلقت يد الطرطوشي في أموالها، وتحسنت أحواله، ووهبت له دارا من أملاكها، جعل سكنه معها في الدور الأعلى، واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلقي فيها دروسه، ويستضيف فيها طلاب العلم من الغرباء الوافدين على الاسكندرية.

وبعد أن استقرت الحياة بالطرطوشي في الاسكندرية خرج لزيارة العاصمة «القاهرة» وهناك ذهب لزيارة الوزير الكبير، صاحب السلطان الأعلى، الملك الأفضل شاهنشاه، وذهب لزيارته بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه، لا ليسأله منحة أو عطية، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره، بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين، وليعظه الموعظة الحسنة، وليطلب منه الرفق بالرعية، وإشاعة العدل بينهم، وفتح قصره لكل شاك أو متظلم ولم يكن هذا غريبا من الطرطوشي، العالم الزاهد الجريء، الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، والذي لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه، فهو الذي وصفه ابن فرحون بأنه كان أبي النفس، والذي وصفه المقري بأنه كان قوالا للحق.

وقد أثبت الطرطوشي موعظته هذه للأفضل في كتابه الذي نحن بصدده (سراج الملوك) ومما جاء فيها:

«أيها الملك» إن الله تعالى ألزم الورى طاعتك، فلا يكونن أحد أطوع لله منك. وأن الله تعالى أمر عباده بالشكر، وليس الشكر باللسان، ولكنه بالفعال والاحسان، قال تعالى «اعملوا آل داود شكرا».

واعلم أن هذا الملك الذى أصبحت فيه انما صار اليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثلما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الامة، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ فسخر له الانس والجن والشياطين والوحوش والبهائم، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له: «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» فو الله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله تعالى ومكرا به فقال: «هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر» فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، أعانك الله على ما قلدك، وجعلك كهفاً للملهوف وأمانا للخائف..»

جرأة فى الحق:

هكذا خاطب الطرطوشى العالم الزاهد، الملك الأفضل ذا الحول والطول، وهو فى أوج سلطانه وعظمته، والكل يأتمرون بأمره، حتى خليفته «الآمر» نفسه.

ويصف الدكتور جمال الدين الشيال هذه الموعظة بأ نها إن دلت على شيء فهى تدل على جرأة الرجل فى الحق، وهى خير شهادة له على ذلك، وإذا كان الطرطوشى لم يسجل لنا كيف تقبل «الأفضل» هذا الحديث، فإن اغلب الظن أنه هز كيانه هزاً، وانه استنكره فيما بينه وبين نفسه، وان كان قد تظاهر بقبوله قبولا حسنا، فإن الحاكم المستبد يأنف عادة من النقد، وتستهويه كلمات المديح. ولذلك أضمر فى نفسه الشر للطرطوشى.

وأخذ يتحين الفرصة المناسبة للايقاع به. فلو ظل هذا العالم الزاهد على سياسته فى نقد الحاكم ونظام الحكم، فإنه سيسبب للدولة متاعب كثيرة وسينقص من مهابتها فى أعين الشعب وسكت الملك المستبد «الأفضل» عن الطرطوشي وسمح له بالعودة إلى الاسكندرية وهو على ثقة بأن الوقت لن يطول حتى يقع الطرطوشي فى براثنه.

متاعب وآلام:

عاد الطرطوشي إلى الاسكندرية ليستأنف سيرته الأولى، وليفرغ للعلم والتعليم، وتكاثر طلابه، وأقبلوا على دروسه، وأحبوه، اصطنع هو لهم طريقة هى أقرب شئ إلى طرق التربية الحديثة، فلم يقصر اجتماعاته بهم على حلقات الدرس ثم ينفضون من حوله، بل كان يصحبهم ويخرج معهم فى معظم الأوقات فى رحلات خارج المدينة إلى البساتين والأماكن الخلوية، وهناك فى الهواء الطلق يلقى دروسه أو يذاكرهم فيما حفظوه ودرسوه، وشاقت هذه الطريقة تلاميذه فأقبلوا عليه، وكثر عددهم، حتى كان إذا خرج فى رحلة من هذه الرحلات خرج فى كوكبة لا تقل عن أربعمائة طالب. لكن هذا الاقبال جر على الطرطوشي الوبال، فقد ضاق به قاضى الاسكندرية ابن حديد ضيقاً شديداً، فقد كان ابن حديد ينتظر من الطرطوشي عند نزوله بالمدينة ان يسعى إليه، وأن يمدحه، وأن يكون من حاشيته، ولو أنه فعل هذا لأغدق عليه ابن حديد العطايا، وليسر عليه شئون الحياة جميعاً، ولكن الطرطوشي كان من صنف آخر من الرجال، كان رجلاً يعتد برجولته، وكان عالماً يعتز بعلمه، وكان بعد هذا زاهداً لا يحبذ ذلك النوع من الحياة المترفة الباذخة التى كان يحياها ابن حديد.

وربما أخذ الطرطوشي على ابن حديد بعض تصرفاته المالية ويعدها عن قواعد الشرع والإسلام، واغلب الظن أنه أطلق لسانه يتحدث إلى الناس بهذه المآخذ المالية، مما آلم ابن حديد وآذاه.. وكان للطرطوشي أيضاً إلى جانب هذا فتاوى كثيرة يعارض بها النظم والقواعد القائمة التي تأخذ بها الدولة، وينتقد كثيراً من العادات السائدة في المجتمع، والتي تنافي الدين الاسلامي وأصوله.

جمع ابن حديد كل ما توفر لديه من مآخذ واتهامات ضد الطرطوشي، وحشدها في تقرير رفعه إلى الوزير الأفضل شاهنشاه ليتخذ ما يراه مع الرجل الذي لا يكف عن النقد، ووجدها الأفضل فرصة سانحة لقطع لسان الطرطوشي من النقد، فكتب إلى والي الاسكندرية يطلب منه إيفاد الطرطوشي إليه. وفي القاهرة استقبل الافضل الطرطوشي استقبالا طيبا، ولم يشأ ان يسلك معه العنف حتى لا يثير غضب الجماهير عليه، وإنما لجأ إلى حيلة تمنع اتصال الطرطوشي بالجماهير، وحبسه في قفص ذهبي يجد فيه الغذاء الجيد. والإقامة الهنية، فحدد إقامته في مسجد «الرصد» جنوبي الفسطاط. ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه وعين له راتبا شهريا بضعة دنانير يأخذها من خزينة الدولة، وسمح لخادمه بالإقامة معه. ومضت عدة شهور والطرطوشي معتقل في محبسه، فلما بلغ به الضجر قال لخادمه: إلى متى نصبر؟! وامتنع عن أكل شئ مما يأتيه من الأفضل، وأمر خادمه أن يجمع له شيئا حلالا من نبات الأرض، وظل ثلاثة أيام يأكل المباح، ويصلي ويتعبد ويبتهل إلى الله أن ينقذه من هذه المحنة، فلما كان اليوم الثالث سمع نبأ مقتل الوزير المستبد الأفضل شاهنشاه وتولية الوزير المأمون البطائحي وانكشفت الغمة عن الطرطوشي فعاد إلى

الاسكندرية، واستأنف حياته ونشاطه العلمى، ولم تنل هذه المحنة من عزيمته أو تخفف من حدته، فقد كانت تشغله دائما الأمور التى يراها نافية للشرع والعدل، وخشى أن تأخذ الوزير الجديد ـ البطائحى ـ عزة الحكم وأبهة السلطان فيسير على نهج سلفه، ورأى أن مسئوليته العلمية تحتم عليه أن ينصح الوزير بما ينبغى أن يكون عليه الحكم الصالح، فاعتكف عاما فرغ فيه من تأليف كتابه (سراج الملوك) فلما أتم الكتاب شد الرحال إلى القاهرة وقدم الكتاب إلى الوزير ليكون دستورا له ومعينا على النهج القويم.

احترام وتبجيل:

ولم يكد «المأمون» يسمع بوصول الطرطوشى إلى دار الوزارة، حتى صرف الكتاب وكبار الموظفين الذين كانوا بين يديه، وفض المجلس، وأمر بإدخال الفقيه لمقابلته، فلما دخل عليه، وقف الوزير، ونزل عن سريره، ولم تكن من عادة الوزير فى العصر الفاطمى أن يقوم لتحية القادم عليه مهما كانت مكانته، ولكن المأمون لم يقنع بالوقوف لتحية الطرطوشى فقط، بل نزل وجلس بين يديه كما يجلس التلميذ بين يدى الأستاذ، وهذا أكبر دليل ـ كما يقول الدكتور الشيال ـ على عظم مكانة الطرطوشى، وما كان يحسه الوزير نحوه من تبجيل واحترام.

قدم الطرطوشى إلى المأمون البطائحى كتاب (سراج الملوك) الذى الفه باسمه وأهداه اليه وليعرض عليه تلك الأمور المنافية للشرع والتى سبق أن تحدث بشأنها مع الافضل فلم يستمع اليه. ويوضح الأستاذ محمد فتحى أبو بكر محقق الكتاب تلك الامور بأنها كانت تتعلق بنظم الميراث، فقد كان القضاة فى مصر ـ فى العصر الفاطمى ـ يتبعون

المذهب الشيعي الذى يقضى بأن ترث البنت كل ما يترك أبوها إذا كانت وحيدة لا أخ لها ولا أخت، ويحرم العصبة من المشاركة فى الميراث.

وكانت النظم الوضعية المتبعة تقضى أيضاً بأن يأخذ أمناء الحكم - أى الموظفون القضائيون المشرفون على شئون الميراث - ربع العشر من أموال الأيتام عند توزيع التركة.. وكان الطرطوشى يرى فى الأمر الأول مخالفة للشرع فى نظره - أى للمذاهب السنية فالمذاهب السنية ترى ألا ترث البنت أكثر من نصف التركة. وكان يرى فى الأمر الثانى ظلما فاحشاً، واغتصاباً لحق الأيتام، ومن واجب الحكومة أن تحافظ على أموالهم وتصونها، لا أن تقتطع جزءاً منها لموظفيها.

اما المأمون فقد اهتدى إلى حل يرضى الطرفين بأن يتبع فى الميراث مذهب الميت، فإن كان سنيا اتبع المذهب السنى، وإن كان شيعيا اتبع المذهب الشيعى، أما الأمر الثانى فقد وافق عليه الوزير منذ اللحظة الاولى لأنه رأى فيه إجحافا حقيقيا بأموال اليتامى وحقوقهم، وصدر سجل رسمى يوقع عليه من الخليفة «الآمر» والوزير المأمون بهذه الصيغة الجديدة، وأرسل إلى القضاة فى كل أنحاء الدولة للعمل بها. واطمأنت نفس الطرطوشى بهذا الاتفاق. فعاد إلى الاسكندرية ليواصل رسالته التعليمية والفقهية.

الوزير الجديد

انكشفت الغمة عن الإمام الطرطوشى بمصرع الوزير الطاغية الأفضل شاهنشاه، وجاء الوزير الجديد المأمون البطائحى وأخرجه من السجن وسمح له بالعودة إلى الاسكندرية ليستأنف نشاطه العلمى.

ويتحلق حوله التلاميذ والجمهور ينهلون من فكره وفقهه، وطابت الحياة للإمام الزاهد فى هذه المرحلة الأخيرة من حياته التى هى أزهي سنوات عمره، لأنها سنوات النضج أنتج فيها مؤلفاته الجليلة التى بلغت اثنين وعشرين كتاباً فى علوم التفسير والفقه ومسائل الخلاف والتصوف ومشاكل المجتمع، ولم يبق من هذه الثروة سوى تسعة كتب فقط أجلها وأهمها كتاب «سراج الملوك» الذى وضعه ليكون سراجاً يضيء للوزير الجديد سبيل الرشاد، ويجنبه الوقوع فى الأخطاء التى ارتكبها سلفه، وتحرى الطرطوشي أن يكون كتابه دستورا جامعا لآداب السياسة وفن الحكم للحكام والمحكومين على السواء، وجمع مادته من أمهات الكتب وسير الحكام والملوك من كافة الأمم، فجاء كتابه أشبه بالموسوعة التى لا يستغنى عنها الإنسان المهموم بقضايا السياسة.

وإذا كان العلامة ابن خلدون قد اعترف فى مقدمته بأن الطرطوشي من المفكرين القلائل الذين سبقوه فى التأليف فى هذا الموضوع، إلا أنه لم يلبث أن تحامل على الطرطوشي واتهمه بأنه لم يحسن الوصول إلى الهدف الذى أراده، وقد تصدى للدفاع عن الطرطوشي محقق الكتاب الأستاذ محمد فتحي أبو بكر، فقال إن ابن خلدون أراد أن يتعالى على الطرطوشي وأن يفخر بما آتاه الله من نعمة التوفيق فى مقدمته، وإنصافا للطرطوشي وللحقيقة يقول المحقق: إن هدف الطرطوشي من تأليف «سراج الملوك» لم يكن كهدف ابن خلدون من تأليف كتابه «العبر» هدفا علميا خالصا، وإنما كان هدفا فنيا وهو أن يؤثر فى النفوس بالقصة يرويها، أو بالمثل والحكمة والموعظة الحسنة، يلمح ولا يصرح، وحقيقة أن الطرطوشي لم يكن نداً لابن خلدون، ولكن العدل أن يقاس

نجاح المؤلف بمقدار نجاحه فى تحقيق أهدافه التى كان يتطلع إليها عند وضع مؤلفه.

وفى رأى الدكتور جمال الدين الشيال أن الطرطوشى، فى كتابه هذا، واحد من المفكرين الذين لا يفرقون بين السياسة والأخلاق، بل يراهما شيئا واحدا متفقا، وهو يشبه فى هذا فلاسفة اليونان القدامى ومفكريهم، ويختلف اختلافا كبيرا عن فلاسفة أوروبا فى عصر النهضة والعصر الحديث من أمثال هوبز، ولوك، وروسو، وهيجل، وماركس، الذين كانوا يفرقون بين السياسة والأخلاق، ويفكرون فى مشاكل السياسة وموضوعاتها تفكيرا مستقلا عن تفكيرهم الخلقى، وهو يشبه فى هذا أنداده من المفكرين الإسلاميين، فهم جميعا لم يفرقوا فى مؤلفاتهم بين السياسة والأخلاق.

قسم الطرطوشى كتابه «سراج الملوك» إلى أربعة وستين بابا، فيبدأ الباب بتقرير المبدأ الخلقى الذى يرى أن يتحلى به صاحب الوظيفة، ملكا أو وزيرا أو والياً أو قاضيا، ويشرح هذا المبدأ شرحا يسيرا، ولكنه لا يطيل، بل يسرع بإيراد كثير من الحكم والأمثال والقصص التى تؤيد صحة هذا المبدأ، وهو يقتبس هذه القصص والحكم والنوادر من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ومن سير الأنبياء والخلفاء والصالحين، ومن سير الملوك والحكماء السابقين من مختلف الأجناس والعصور.

وقد استهل المؤلف كتابه بمقدمة شرح فيها الغرض من كتابه والمنهج الذى استخدمه، وكيف نظر فى سير الأمم الماضية والملوك الخالية، وما وضعوه من السياسات فى تدبير الدول.

مواعظ الملوك:

أما الباب الأول فهو فى مواعظ الملوك ويبدأه بالحكمة أو الموعظة المتشددة، وهى: لقد خاب وخسر من كان حظه من الله الدنيا. ثم يدخل فى الموضوع مباشرة فيقول: اعلم أيها الرجل - وكلنا ذلك الرجل - أن عقول الملوك، وإن كانت كباراً، إلا أنها مستغرقة بكثرة الأشغال، فتستدعى من الموعظة ما يتولج على تلك الأفكار ويتغلغل فى مكامن تلك الأسرار، فترفع تلك الأستار، وتفك تلك الأكنة والأقفال، ويصقل ذلك الصدأ والران قال الله تعالى: «كلا بل ران على قلوبهم» وقال: «قل متاع الدنيا قليل» فوصف الله تعالى جميع الدنيا، بأنها متاع قليل، وأنت تعلم أنك مـا أوتيت من ذلك القليل إلا قليـلا ثم ذلك القليل إن تمتعت به ولم تعص الله فيه، فهو لهو ولعب «وزينة» قال الله تعالى: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة» ثم قال: «وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون» فلا تبع أيها العاقل لعبا قليلا يفنى، بحياة الأبد حياة «لاتفنى» وشباب لا يبلى، كما قال الفضل «رحمه الله»: «لو كانت الدنيا ذهبا يفنى وكانت الآخرة خزفا يبقى، لوجب أن نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى» فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى؟ تأمل بعقلك: هل آتاك الله من الدنيا ما آتى سليمان بن داود، عليهما السلام حيث آتاه ملك جميع الدنيا، والإنس والجن «والطير» والوحش: و«الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب» ثم زاده الله «تعالى» ما هو أعظم منها، فقال تعالى: «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها رفعة ومنزلة كما حسبتموها، بل قال عند ذلك: «هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر» وهذا فصل الخطاب لمن تدبر أن يقول له «ربه» فى معرض

المنة: «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» ثم خاف سليمان عليه السلام أن يكون استدراجا من حيث لا يعلم.

هذا وقد قال لك ولسائر أهل الدنيا: «فوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا يعملون» وقال: «وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين» تأمل بعقلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء» وألق سمعك إلى ما نزل به جبريل عليه السلام من عند الله - تعالى - على «نبيه» محمد صلى الله عليه وسلم فقال: «يامحمد، إن الله يقول لك، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به» فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه الكلمات من صرعة الموت وفراق الأحبة، والجزاء على الأعمال، فلو لم ينزل من السماء غيرها لكانت كافية.

نوادر الزهاد:

وقال عبد الله بن المعلم، وهو محدث وراوية معروف: خرجنا من المدينة حجاجا، فلما كنا بالرويثة نزلنا، فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة «ليس» له منظر وهيئة فقال: من يبغى خادما؟ من يبغى ساقيا؟ فقلت: دونك هذه القربة فخذها فانطلق فلم يلبث إلا يسيرا، حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طينا، فوضعها كالمسرور الضاحك، ثم قال: لكم غير هذا؟ قلنا: لا وأطعمناه قرصا باردا، فأخذه وحمد الله «تعالى» وشكره، ثم اعتزل وقعد فأكله أكل جائع، فأدركتنى عليه الرأفة، فقمت إليه بطعام طيب كثير، فقلت «له» قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع، فدونك هذا الطعام، فنظر فى وجهى وتبسم وقال: ياعبد الله إنما هى

فورة جوع، فما أبالى بأى شئ رددتها، فرجعت عنه، فقال لى رجل إلى جنبى: أتعرفه؟ قلت: لا. قال: إنه من بنى هاشم، من ولد العباس ابن عبد المطلب، كان يسكن البصرة فتاب، فخرج منها، فتفقد فما عرف له أثر، ولا وقف له على خبر، فأعجبنى قوله، ثم اجتمعت به وأنسته، وقلت له: هل لك أن تعادلنى فإن معى فضلا من راحلتى فجزانى خيرا وقال: لو أردت هذا لكان لى معدا، ثم أنس إلى، فجعل يحدثنى فقال: أنا رجل من ولد العباس، كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبر شديد وبذخ، وإنى أمرت خادما لى أن تحشو فراشا لى من حرير ومخدة بورد نثير ففعلت وإنى لنائم إذا بقمع وردة قد أغفلته الخادم فقمت إليها فأوجعتها ضربا، ثم عدت إلى مضجعى بعد إخراج القمع من المخدة، فأتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة، فهزنى وقال: أفق من غشيتك، أبصر من حيرتك، ثم أنشد يقول:

يــا خـد إنـك إن توسـد لـينا

وسدت بعد الموت صم الجندل

فامهد لنفسك صالحا تسعد بـه

فلـتندمـن غـدا إذا لـم تفـعل

فانتبهت فزعا، فخرجت من ساعتى هاربا إلى ربى.

وقال عبد الواحد بن زيد: ذكر لى أن فى جوانب الأبلة جارية مجنونة، تنطق بالحكمة، فلم أزل أطلبها حتى وجدتها فى خربة جالسة على حجر، وعليها جبة صوف، وهى محلوقة الرأس، فلما نظرت إلى ،

قالت من غير أن أكلمها: مرحبا بك يا عبد الواحد، فقلت لها: رحب الله بك، وعجبت من معرفتها لى، ولم ترنى قبل ذلك، فقالت: ما الذى جاء بك هاهنا؟ فقلت: جئت لتعظينى، فقالت: واعجباه لواعظ يوعظ: ثم قالت: يا عبد الواحد، اعلم أن العبد إذا كان فى كفاية ثم مال إلى الدنيا، سلبه الله حلاوة الزهد، فيظل حيران والها، فإن كان له نصيب عند الله عاتبه وحيا فى سره، فقال: عبدى أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتى وحملة عرشى، وأجعلك دليلا لأوليائى وأهل طاعتى «فى أرضى، فملت إلى عرض من أعراض الدنيا وتركتنى، فورثتك بذلك الوحشة بعد الأنس،. والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى عبدى ارجع إلى ما كنت عليه أرجع لك ما كنت تعرفه من نفسك «قال»: ثم تركتنى وولت عنى، وانصرفت عنها، وبقلبى حسرة منها.

آخر الكلمات:

وينقل لنا آخر كلمات الصحابة الأجلاء وهم فى آخر عهدهم بالدنيا، وأول عهدهم بالآخرة، ومنها كلمات الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بعد أن ضربه عبد الرحمن بن ملجم الضربة القاتلة، فأدخل الإمام إلى بيته وقد اعترته غشية ثم أفاق ودعا الحسن والحسين رضى الله عنهما، فقال: أوصيكما بتقوى الله، والرغبة فى الآخرة، والزهد فى الدنيا، ولا تأسفا على شئ فاتكما منها، اعملا الخير، وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا، ثم دعا محمدا وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك؟ قال: بلى قال: فإنى أوصيك به، وعليك ببر أخويك، وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمرا دونهما. ثم أقبل عليهما فقال:

أوصيكما به خيرا، فإنه أخوكما وابن أبيكما، وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحباه.

ثم قال: يابنى، أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة، وكلمة الحق فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، والعدل فى الصديق والعدو، والعمل فى النشاط والكسل، والرضا عن الله فى الشدة والرخاء.

يابنى، ما شر بعده الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية.

يابنى، من أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره، ومن رضى بقسم الله لم يحزن على ما فاته، ومن سل سيف البغى قتل به، ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عورات بنيه، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأنذال احتقر، ومن جالس العلماء وقر ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يصحب صاحبا صالحا يغنم ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن لا يملك نفسه ندم ومن مزح استخف به ومن أكثر من شئ عرف به. ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار.

يابنى، الأدب خير ميراث، وحسن الخلق خير قرين.

يابنى، العافية عشرة أجزاء، تسعة منها فى الصمت، إلا عن ذكر الله تعالى، وواحدة فى ترك مجالسة السفهاء.

يابنى، زينة الفقير الصبر، وزينة الغنى الشكر.

يابنى لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعلى من التقوى، ولا معقل أحرز من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية. الحرص مفتاح المقت، ومطية النصب، التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم، بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد. طوبى لمن أخلص لله علمه وعمله، وحبه وبغضه، وأخذه وتركه، وكلامه وصمته، وقوله وفعله.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما طعن دعا بلبن فشربه فخرج من طعنته، فقال: الله أكبر، فجعل جلساؤه يثنون عليه، فقال: وددت أن أخرج منها كفافا كما دخلت فيها. لو أن لى اليوم ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع، قال ابن عمر: ولما حضرت الوفاة عمر غشى عليه، فأخذت رأسه فرفعته فى حجرى، فقال: ضع رأسى بالأرض لعل الله يرحمنى ، فمسح خديه بالتراب، وقال: ويل لعمر، ويل لأمه إن لم يغفر له، فقلت: وهل حجرى والأرض إلا سواء يا أبتاه ؟ فقال: ضع رأسى بالأرض لا أم لك كما آمرك، فإذا قضيت فأسرعوا بى إلى حفرتى، فإما هو خير تقدموننى إليه، أو شر تضعونه عن رقابكم، ثم بكى. فقلت له : ما يبكيك؟ قال: خبر السماء، لا أدرى إلى جنة ينطلق بى أو إلى نار.

الفوائد والقواعد

لابن ماجد

من دواعي فخرنا واعتزازنا بتاريخنا العربي أن يهتم الباحثون الأوربيون بتاريخ الملاح العربي - ابن الامارات العربية وساحل عمان - أحمد بن ماجد الذي يقال.إنه أرشد الرحالة البرتغالي (فاسكو دي جاما) الى الطريق الى الهند من ساحل أفريقيا الشرقي، وقد بدأ هذا الاهتمام بعد أن عثروا على كتاب عربي قديم هو (البرق اليماني في الفتح العثماني) لمؤلفه قطب الدين النهروالي المتوفي عام ١٥٨٢ ميلادية، أي بعد خمسين سنة تقريبا من رحيل أحمد بن ماجد، وفيه يقول إن رجلا ماهرا من أهل البحر- هو أحمد بن ماجد أشار على قائد الأسطول البرتغالي بأن الوصول من ساحل كينيا يتحقق بالتوجه شرقا عبر وسط المحيط، لا بالسير بمحاذاة الساحل الأفريقي.

وكانت أحدث الاهتمامات بهذا البحار العربى، صدور كتاب حديث من الجمعية الآسيوية الملكية، يتناول نشاط الملاحة العربية فى المحيط الهندى قبل قدوم البرتغاليين مع مقدمة وافية عن تاريخ الملاحة العربية عامة، و ملاحظات عن الأساليب الملاحية، وطبوغرافية سواحل المحيط الهندى، كما يشتمل على جامع مفردات للمصطلحات الملاحية العربية، وخرائط بحرية للبحاثة الدكتور ج. ر. تبيتس الذى يذكر أن أحمد بن ماجد ينتسب إلى قبيلة (قيس عيلان) فى الجزيرة العربية، وقد هاجر آباؤه إلى ساحل عمان، وولد ابن ماجد فى (جلفار) على ساحل عمان فيما بين عامى ١٤٣٢ - ١٤٣٧ ميلادية، فلما بلغ مرحلة الشباب تفرغ للملاحة البحرية حتى صار معلما وخبيرا بشئونها، وكانت معظم رحلاته فى البحر الأحمر وبحر العرب، ويبدو أنه احترف مهنة الملاحة عن جده محمد بن عمر، وكذلك عن أبيه الذى اشتهر باسم (معلم البرين) أى الساحلين العربى والسودانى من البحر الأحمر.

وترجع أهمية كتاب الدكتور تبيتس - كما يقول العلامة الدكتور أمين توفيق الطيبى - الذى نقل إلينا ملخصا عن هذا الكتاب - إلى أنه فند التهم المزعومة التى روجها البرتغاليون للتقليل من شأن ابن ماجد، فيشيرون إلى من أرشدهم إلى الهند باسم (ماليمو كانكا) أما (ماليمو) فهى من العربية (معلم) أى رئيس البحارة، وكانت شائعة الاستعمال فى منطقة المحيط الهندى، وأما (كانكا) فهى كلمة هندية بمعنى (منجم) . كما أن البرتغاليين يشيرون إلى من أرشدهم باسم (المسلم من كجرات) فى حين أن ابن ماجد عربى من ساحل عمان وترجع جذوره إلى نجد، علما بأن البرتغاليين كانوا يميزون بين مسلمى الأقطار المختلفة، فلو كان المرشد عربيا لذكروا أنه مسلم من الجزيرة

العربية، أضف إلى هذا أن ابن ماجد كان يتأسف فى كتاباته لظهور البرتغاليين فى منطقة المحيط الهندى.

أما قطب الدين النهروالى، الذى ذكر ابن ماجد بالاسم فى كتابه (البرق اليمانى) فقد عاش بعد جيل من وفاة ابن ماجد عام ١٤٥٠م، ثم إن سيدى على شلبى - قائد الأسطول العثمانى الذى أرسل الى الهند لطرد البرتغاليين، وكان معاصرا للنهروالى، فقد ذكر ابن ماجد بكل إجلال، ويعتمد عليه فى ما كتبه، ويصفه بمعلم المحيط الهندى، وهو لا يذكر شيئا على الاطلاق عن أن ابن ماجد أرشد البرتغاليين للوصول إلى الهند.

وعلى هذا يكون من المرجح - فى رأى الدكتور الطيبى - أن المرشد المقصود كان هنديا مقيما فى ساحل افريقيا الشرقى، وأنه كان يأمل من وراء ذلك فى تمكينه من العودة إلى وطنه، ولم يكن ذلك المرشد عربيا من طراز ابن ماجد، الذى كان يدرك دون شك العواقب الوخيمة المترتبة على وصول البرتغاليين إلى الهند، ومنافستهم للتجار العرب، وما أعقب ذلك من إقامتهم «حصون وقلاع حربية» على السواحل العربية.

ابن ماجد .. أديبا وشاعرا

وقد ظل اسم أحمد بن ماجد على ألسنة البحارة فى المحيط الهندى قرونا عديدة بعد وفاته، حتى أن السير ريتشارد بيرتون يذكر فى كتابه (الخطوات الأولى فى شرق أفريقيا) أنه لما أبحر فى مركب من عدن فى سنة ١٨٥٤ م، تلا البحا[illegible]ة (الفاتحة) قبل الاقلاع ترحما على

روح الشيخ ماجد، ولعل اسم ابن ماجد مازال يتردد على ألسنة البحارة إلى يومنا هذا.

ويبدو أن حياة البحر أثارت عند ابن ماجد اهتمامات أدبية، ويصف البحاثة تبيتس أسلوبه بأنه أسلوب هاوى أدبى، «مع أن ابن ماجد لم يكن شاعرا من الطراز الأول، إلا أنه كان مثقفا وملما بالأدب العربى، ويقتبس الكثير من أشعار امرئ القيس، وعمرو بن كلثوم، وعمر بن أبى ربيعة، و أبى نواس، وابن المعتز، والمعرى، كما أنه كان متدينا يورد آيات قرآنية كريمة مناسبة، يوصى البحارة بتلاوتها عند المخاطر والأنواء، ويورد المؤلف الانجليزى أكثر من أربعين قصيدة نظمها ابن ماجد، ويدور معظمها حول الشئون الملاحية، من بينها القصيدة المكية (عن الابحار الى جدة) والسبعية (وهى بمثابة مرشد للملاحة فى بحر العرب والبحر الأحمر) والسقالية (وهى أرجوزة من ٨٠٠ بيت عن الطريق الملاحى بين الهند وسقاله على ساحل موزمبيق) و يتناول فيها وصول البرتغاليين إلى الهند، وعلاقاتهم بحكامها، وأثر ذلك على التجارة العربية فى الهند.

أما كتاب (الفوائد فى أصول البحر و القواعد) الذى ألفه ابن ماجد فيبدأ بمقدمة عن أهمية علم الملاحة، ويذكر ابن ماجد اثنتى عشرة فائدة أفرد لكل منها فصلا فى كتابه، ففى الفائدة الأولى يذكر اسمه الكامل، ويورد مختصرا لتاريخ الملاحة قبل زمانه، ويورد فى الفائدة الثانية الصفات التى ينبغى توفرها فى المعلم أو رئيس المركب (القبطان) وتتناول الفوائد الثلاث التالية منازل القمر والنجوم، وفى الفائدتين السادسة والسابعة يتناول ابن ماجد أنواع المسالك والقياس

بالتفصيل، ويتحدث فى الفائدة الثامنة عن الإشارات والمعالم والسياسات الخاصة بتصرف المعلم تجاه ركاب المركب وسلامتهم، ويتحدث فى الفائدتين التاسعة والعاشرة عن سواحل العالم، ابتداء من رأس الحد (جنوبى مسقط) بما فى ذلك خليج عمان وخليج بربرة، وفى الفائدة الحادية عشرة يتحدث عن مواسم الأسفار البحرية من الجزيرة العربية إلى الهند ذهابا وإيابا، أما الفائدة الثانية عشرة والأخيرة، فيكرسها للحديث عن الجزر والشعاب فى البحر الأحمر.

ويلى الترجمة الانجليزية لكتاب (الفوائد) يفرد البحاثة تبيتس فصلا عن طبوغرافية سواحل الجزيرة العربية والهند وشرق أفريقيا وجنوب شرقى آسيا، ويختتمه بجامع مفردات للمصطلحات الملاحية رتبه حسب حروف المعجم، وبثلاثة فهارس بأسماء النجوم بالعربية، وأسماء الأماكن بالعربية، وأسمائها بالانجليزية.

الذخائر والتحف

لابن الزبير

في كتابه (الذخائر والتحف) اكتفى القاضي الرشيد بن الزبير بسرد الوقائع والحكايات التي نقلها عمن سبقه، أو تلك التي شاهدها بنفسه، دون نقد أو تحليل، باستثناء تعليقات طفيفة وردت على ألسنة الرواة، وهو يقدم لنا بيانات وافية عن الهدايا التي كان يتبادلها الملوك والخلفاء والولاة، وماكانت تتكلف من أموال باهظة، ولكنها لم تستفز شعوره كما تستفز شعور القارئ الحديث، ولم ينظر المؤرخ إلى ماوراء هذا السفه والبذخ في وقت كانت المجتمعات الاسلامية تعاني فيه الضنك والفاقة. ومن الظلم أن نكلف مؤرخ القرن الخامس فوق طاقته، ونلزمه بالتحليل والتعليق والنقد، فالمؤرخون الأقدمون كانوا يقفون عند حد السرد ولا يتجاوزونه إلى استنباط الأفكار، والربط بين الحدث وبين الظروف الاجتماعية، ولم يظهر هذا النوع من التحليل التاريخي إلا في وقت متأخر على يد فيلسوف التاريخ «ابن خلدون» في القرن الثامن الهجري.

فى هذا الكتاب يتحدث القاضى ابن الزبير عن «النفقات فى الولائم المشهورة والدعوات المذكورة»، وحكايات «الولائم» قد تبدو للقارئ على أنها من الطرائف والنوادر التى لاترقى إلى مستوى الأحداث التاريخية الهامة. ولكن القارئ الواعى يستنبط منها صورة المجتمع وما كان يجرى فى قمة الدولة حيث تقام الولائم الفاخرة وتنفق عليها الأموال الباهظة بينما عامة الناس يفتقدون كسرة الخبز. ومن فوائد هذا الباب أنه يعرض بالتفصيل لقصة مشهورة فى تاريخ مصر الإسلامية، عندما جاء الخليفة العباسى «المأمون» إلى مصر لمعالجة الإنتفاضة الشعبية التى قامت بسبب المغالاة فى فرض الضرائب. مما دفع المصريين - مسلمين ومسيحيين - إلى التمرد والاحتجاج، وبينما كان المأمون يطوف قرى المنوفية لتهدئة خواطر الناس، استوقفته سيدة قبطية من ذوات اليسار عند قرية اسمها (طاء النمل) وألحت عليه فى أن يشرفها بالنزول ضيفا عليها هو وحاشيته، فلما انتهت فترة الضيافة قدمت إليه هدية عبارة عن كئوس من الذهب الخالص، الأمر الذى أثار دهشة المأمون وفضوله، فسألها عن مصدر ثرائها. فكبشت حفنة من التراب ثم أشارت إلى الذهب وقالت للمأمون: هذا (أى الذهب) من هذا (أى من طين مصر) ومن عدلك ياأمير المؤمنين.

هذه القصة أوردها صاحب كتاب (الذخائر والتحف) بتفصيل دقيق حتى أنه ذكر كل أنواع الأطعمة التى قدمتها المرأة القبطية للخليفة. وحكى لنا قصة أخرى مشابهة لها حدثت فى عهد الوالى الأموى عبد العزيز بن مروان - والد الخليفة عمر بن عبد العزيز - أثناء ولايته على مصر فيما بين ٦٥ - ٨٥ هجرية مع صاحب قرية (بلهيب) وترجع أهمية القصتين إلى أنهما تدلان على ثراء فئة من الأقباط كانت لديهم

القدرة على تقديم هدايا ذهبية ثمينة إلى الخلفاء والولاة، واستضافتهم في ضياعهم ومعهم ماشيتهم.

● القصة الأولى:

والقصة الأولى نقلها القاضي الزبير عن المؤرخ الراوية «ابن عفير» إذ قال: خرج عبد العزيز بن مروان إلى الأسكندرية في سنة أربع وسبعين. فاعترضه في طريقه صاحب قرية (بلهيب) فطلب إليه أن ينزل عنده، فقال له عبد العزيز وقد أشفق عليه: ويحك إن معي جماعة، وتلحقك في هذا مؤونة، فقال: إن هذا الأمر لايعظم عندي، ولولا احتمالي لك ولجميع من معك ما طلبت إليك في هذا، فلم يزل حتى نزل عنده، وكان عبدالعزيز في ألف رجل من خواصه، مع كل رجل منهم اثنان وثلاثة، فأقاموا عنده ثلاثة أيام، يقدم إليهم الأطعمة والطرائف في كل يوم ثلاث مرات، ثم أذن عبد العزيز لأصحابه في المسير، فما راعهم إلا أربعة من القبط يحملون قفة عظيمة تسع ثلاثة أرادب. في أذنيها خشبة عظيمة، يحملها اثنان أمامها واثنان خلفها وعليها منديل. وجاء صاحب بلهيب فقال: «ياسيدي مر بهذا فليقسم بين أصحابك! ثم كشف عنها فإذا هي مملوءة دنانير، فأبى عبد العزيز أن يقبلها، وقال: اجعل هذا فيما ينوبك من خراجك وبلغ ذلك أم البلهيبي، وكانت عجوزا ضعيفة كبيرة، فأقبلت إلى عبد العزيز فقالت: أيها الأمير! ماأدري أجئتنا لتسرنا وتسر صديقنا وتسيء عدونا بنزولك عندنا أم جئتنا لتشمت عدونا وتغيظنا؟ فقال: بل جئت لأسركم وأسر صديقكم. قالت: فلم ترد هديتنا علينا؟ قال: إنا كرهنا أن نحملكم مؤونة. قالت: والله مايضرنا هذا إن أخذته ولاينفعنا إن تركته.

وإن عندنا لما يغنينا عنه. فعزمت عليك إلا ماأمرت به فيقسم بين أصحابك فأمر به فقسم بينهم حفنا. فعمهم أجمعين.

● فى طاء النمل:

أما قصة المرأة القبطية مع الخليفة المأمون فقد نقلها القاضى الزبير «عمن أثق به» عن ابن مهدأ، أحد عمال الريف. وكان مسئولا عن الضياع الجوانية من كورة دميس فى أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله. قال: نزلت يوما الضيعة المعروفة بطاء النمل. فرأيت فيها آثار بناء قديم كأحكم مايكون من الأبنية وأتقنها. فسألت ماروت الضيعة عنه، ولمن كان. فقال لى: أنا آتيك بمن يعرفك به وبأربابه.

فجاءنى بشيخ من القبط، قد جاوز المئة سنة بعدة سنين، صحيح العقل والحديث. فسألته عن البناء فقال: قال لى أبى، وعمره قريب من عمرى، وقد سألته عن هذه الآثار وهى أبين مما رأيت وأجد: «لمن كان هذا البناء؟» فقال: «لماروت من القبط عاملته وشاهدته»، وكان ذا يسار، وقدر، وهمة عالية، من أهل هذه الضيعة وله والدة تضاهيه فى القدرة والمروءة، تدعى مارية. ولقد رأيتها أيام ورد المأمون إلى مصر فى سنة ثمان عشرة ومائتين، وانحدر إلى بلد اليحموم. وكان يبنى له فى كل ضيعة دكة ويجعل عليها تركية (؟)، فإذا ورد الضيعة جلس فى التركية، ونزل العسكر والقواد والوجوه بجوانبها. وقد عن له أن لا ينزل فى طاء النمل. واتصل الخبر بمارية المذكورة. فخرجت إليه. وتوصلت إلى خطابه. وكان بحضرة المأمون تراجمة يعرفون الرومية، والقبطية والنبطية، وسائر اللغات، لايفارقون عسكره فى كل أسفاره. فسمع

الترجمان ماقالت فقال: «تقول، ياأمير المؤمنين إنك قد نزلت كل مكان بنيت لك فيه دكة، ومتى لم تنزل عندنا، بقيت وصمة ذلك علينا وعلى ولدنا من بعدنا مابقى الزمان، وافتضحنا بين مواريث القبط، فإذا نزلت أكسبتنا فخرا يبقى على الأعقاب».

فاستحسن المأمون كلامها، وأعجبه عقلها، وعدل برأس دابته إلى التركية فنزل فيها، ونزل جميع العسكر حوله. ورجعت إلى ولدها فأخبرته بما جرى بينها وبين المأمون، فسر بذلك وأحضر إليه وكلاء مطبخ المأمون وطباخيه وسألهم عن قوانين مطبخه فى كل يوم من الحيوان والدجاج والجداء والخراف والفراريج، والإوز، وما يحتاج إليه من التوابل، ورسمه فى الحلاوات والطيب والشمع، وسائر ماجرت به عادته من صغير وكبير. واستدعى كتاب جيش العسكر، وقرر معهم مايحتاج إليه الرجال من الوطاء والأبقار والتعليف. واستدعى وكيل كل رئيس كان مع المأمون. وكان معه ابنه وأخوه وأولاد أخيه: الواثق والمتوكل، وأحمد بن أبى دؤاد، ويحيى بن أكثم وغيرهم من وجوه العراق، ووجوه القواد كالأفشين وأمثاله، ووجوه مصر، وقرر لهم ولأتباعهم مثل ذلك، ووسع عليهم. ولم يمض النهار إلا وجميع ذلك محمول إليهم. فذكر أنه كان فى جملة ماحمله إلى مطبخ المأمون خاصة ثلاثة آلاف دجاجة فائقة سوى ماسواه فى كل يوم. فاستعظم المأمون ذلك واستكثره. فلما أصبح، وهم بالارتحال، خرجت إليه مارية وسألته الاستضافة لها ثلاثة أيام، ففعل. فلما عول على الرحيل خرجت ومعها عشر وصائف، ومعهن عشر صوانى مغطاة بمناديل ديباج. فقال لمن حضره: «قد أهدت إلينا القبطية طرائف الريف من الكعك والخبز

والصر.» فأتت به. فلما كشفت بين يديه، وجد فى كل صنية منها كيسين، فى كل كيس ألف دينار، فى العشر صوانى عشرون ألف دينار، جميعها من نقد واحد. فاستعظم المأمون ذلك واستكثره لأجل النقد، وقال للترجمان: قل لها: أوجدت كنزا؟ فإن هذا النقد المفرد فى مثل هذا الحال لايكون مجتمعا إلا فى كنز أو مال لا يعرف مقداره. فإن كان من كنز فإن على أمير المؤمنين مؤناً كثيرة ومغارم. فضحكت وقالت بعد أن أخذت بيدها قطعة طين: قل لأمير المؤمنين، هذا من هذا الطين ومن عدلك! وعندنا منه شئ كثير. فإن شئت فى ذلك. فأعجبه ذلك وتقدم بإقطاعها عدة ضياع، فامتنعت ولم تجب. فكتب لها إقطاعا بزراعة مائتى فدان زرعاً بطاء النمل. فقبلت ذلك، وبنت على الأرض التى أقطعها قنطرة هى معروفة إلى اليوم باسمها مما قبض فى الصوافى. فى أيام المقتدر وعادت إلى السلطان، معروفة بأرض مارية وانصرف.

● معجم البلدان:

ولما كانت القصة، كما رواها القاضى الزبير، تحتوى على بعض الكلمات الغامضة، فقد استرشدت ببعض المراجع لتوضيحها، فعرفت أن كلمة «مواريت» منفردها ماروت، وهو العمدة أو شيخ البلد أو رئيس القرية فى العصر القبطي. أما قرية (طاء النمل) فلم أعثر لها على مكان بين قرى مصر، ويبدو أنها كانت ضيعة صغيرة اندثرت فلم تجد اهتماما من مؤرخى البلدان. وأما قرية (بلهيب) فقد وجدتها فى (معجم البلدان) للحموى، فقال إنها من قرى مصر، وكان عمرو بن العاص صالح أهلها على الخراج والجزية عقب الفتح، فلما توجه إلى الإسكندرية

كان أهل مصر أعوانا له على أهل الإسكندرية، إلا أهل بلهيب وقرى أخرى، فإنهم أعانوا الروم على المسلمين، فلما فتح عمرو الإسكندرية سبا أهل هذه القرى وحملهم إلى المدينة المنورة، فردهم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وينسب إلى بلهيب أبو المهاجر عبد الرحمن البلهيبى من تابعى أهل مصر، سمع معاوية بن أبى سفيان وجماعة من الصحابة، وبنى له معاوية دارا فى بنى الأعاجم فى الزقاق المعروف بالبلهيبى وكتب على الدار: هذه الدار لعبد الرحمن سيد موالى تجيب، ووهب له معاوية سيفا لم يزل عندهم، ولما ولى عبيد الله بن الحبحاب مصر قال لأبى المهاجر البلهيبى: لأستعملنك ثم لأولينك على قريتك الخبيثة بلهيب، فقال البلهيبى: إذا أصل رحماً، وأقضى ذماما.

● ألف كبش:

ونعود إلى حديث الولائم فى كتاب (الذخائر والتحف) وماكان منها فى العهد الطولونى.

● وعمل أحمد بن طولون بمصر فى ولايته إياها صنيعا فاخراً، أطعم الناس فيه أياما، أولها يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر، من سنة ستين ومائتين. أطعم القواد يوما، والجند يوماً، وأهل المسجد والتجار يوما، ولسائر الناس يومين. ذبح فيه ألف كبش، وثلاثين ثوراً، وخمسة عشر برذوناً، وألف خروف، وألف جدى، وألف إوزة، وعشرة آلاف دجاجة، وعشرين ألف فرخ حمام. ثم صنع صنيعا ثانيا لقواده وخاصته فى يوم الثلاثاء لتسع خلون من جمادى

الأولى منها. فأطعم على سبع وعشرين مائدة، أسرى وأفضل وأكثر من الطعام الأول.

ثم أطعم أيضاً فى يوم الاثنين لثمان ليال بقين من جمادى الأولى منها أربعة آلاف مسكين. وأعطى كل واحد منهم بعد فراغهم من الطعام رغيفاً إصبهانيا. وعرق لحم، ودرهماً. ثم إنه فى يوم الخميس أيضا لثلاث خلون من شهر رمضان من السنة المذكورة أطعم ألفى رجل من المساكين وأعطى كل مسكين عراق لحم، ورغيفاً ودرهما بعد ما أكلوا وحملوا من الطعام ما أحبوا.

كم فى تاريخ البشر من رجال عظماء ظلمهم التاريخ، وتجنى عليهم الكتاب والأدباء والشعراء، وكم من رجال ليسوا بعظماء اصطنع لهم المؤرخون أمجاداً مزيفة، وخلقوا منهم أبطالاً يتغنى الناس بمدحهم وهم ليسوا أهلاً للمدح والتمجيد.

الفاشوش فى حكم قراقوش

ماأشبه التاريخ بالمحيط.. تسبح فيه فلا ترى له شطاً، ولاتدرك له قراراً.. تشرب منه لتروى ظمأك فتزداد عطشاً.. وكذلك التاريخ.. ما إن تضع قدمك على عتباته حتى يجتذبك ويمتلك عليك مشاعرك وأحاسيسك ويسيطر على أفكارك فترى الغد بعيون الأمس، وتستنبط القادم بمقتضى الماضى، والمحيط عالم خفى يفور بالحيوية والصراع، وله قوانينه وشرائعه، فيه الحيتان الكبيرة تبتلع السمك الصغير، وفيه اللآلئ والياقوت والمرجان، وفيه الكائنات الخبيثة والشريرة، وكذلك التاريخ فيه العظمة والمجد والخلود، وفيه أيضا الكائنات الضارة التى كانت وبالا على البشرية. فيه الرواد الذين احتلوا مكان الصدارة عن جدارة، وفيه البطولات المزيفة التى صنعها كتاب مأجورون خلعوا على سادتهم صفات المجد الزائف، وفيه مظاليم تجنى عليهم التاريخ لأنهم لم يتقنوا فن الدعاية والإغداق على الشعراء والأدباء الذين كانوا ـ فى

زمانهم - أجهزة إعلام جبارة يتلقف الناس أقوالهم بدون تمحيص أو دراسة ، فتمضى أقوالهم مع الزمن مجرى الحقيقة مع أنها أقرب إلى الباطل والبهتان.

عندك - مثلاً - قراقوش الذى يضرب به المثل فى التسلط والغباء والجهل، ولم يكن الرجل على شئ من ذلك، بل كان جادا صارما أمينا على ماتحت يديه من أموال، وكل مشكلته أنه لم يكن يعرف المزاح والتهريج ولا يحب تملق الشعراء والندماء القادرين على تجميل صورته أمام العامة. واستغل خصومه هذه الثغرة استغلالاً سيئاً. وتمكنوا من تشويه شخصيته عن طريق النكت والنوادر، حتى بات رصيده فى التاريخ أشبه برصيد «جحا» ونسى الناس الأعمال المجيدة التى قام بها قراقوش عندما أشرف بنفسه على بناء القلعة وتحصين القاهرة بالأسوار المتينة.

وإذا ذهبت يوماً لزيارة قلعة صلاح الدين بالقاهرة فربما أسعدك الحظ وقرأت على الباب المدرج فى الجدار الغربى للقلعة تلك العبارة التى توضح لك مكانة قراقوش فى التاريخ. وإليك نص العبارة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة التى جمعت نفعاً وتحسيناً وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصيناً، مولانا الملك صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين على يد أمين مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبدالله المالكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة».

فإذا كان صلاح الدين هو العقل المفكر فى إنشاء القلعة لتكون سياجاً حربياً يحمى العاصمة من غارات الصليبيين ومقراً للدولة الأيوبية الوليدة فإن بهاء الدين قراقوش هو العقل المنفذ الذى أشرف على بناء القلعة، وهو صاحب الفضل فى إنجاز البناء فى فترة زمنية قياسية بفضل عبقريته الادارية، وخبرته الهندسية فى مجال التشييد والتعمير، لأن صلاح الدين لم يكن مقيما فى مصر أثناء بناء القلعة وإنما نقل مركز قيادته إلى الشام ليكون على مقربة من وطيس المعارك ضد الصليبيين، وترك مهمة بناء القلعة إلى وزيره قراقوش فاختار بنفسه أماكن ثكنات الجنود ومواقع الأبراج ومساكن القادة والضباط.

وهو الذى صمم بئر يوسف كى تمد القلعة بالماء، والتى ينسبها العامة ـ خطأ ـ إلى سيدنا يوسف عليه السلام، ظناً منهم أنه قضى فيها سنى السجن، والحقيقة إن قراقوش هو الذى حفر هذه البئر فى أعماق الصخور فجاءت عملا هندسيا رائعاً.

قال عنها عالم الآثار الإسلامية ك. ا. كريزويل فى وصفه للقلعة: «إن هذه البئر من العجائب استنبطها قراقوش. وينقل عن المقريزى فى الخطط وصفاً لطريقة حفر البئر فيقول: وهذه البئر من عجائب الأبنية تدور البقر من أعلاها فتنتقل الماء نقالة فى وسطها. وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز، وجميع ذلك منحوت ليس فيه بناء. وقيل: إن أرضها مسامته «يعنى فى مستوى» أرض بركة الفيل، وماؤها عذب سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت جاء ماؤها حلوا، فأراد قراقوش أو نوابه زيادة فى مائها، فوسع نقر الجبل، فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها،

وذكر القاضى ناصر الدين شافع بن على فى كتاب عجائب البلدان أنه . ينزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلثمائة درجة.

عبقرية :

ولم يقتصر عمل قراقوش على بناء القلعة، وإنما هو الذى أشرف على بناء السور العظيم الذى أشار به صلاح الدين ليكون حزاماً استراتيجياً يحمى القاهرة من هجمات الصليبيين التى تكررت فى أواخر العصر الفاطمى ولقد كان لبناء القلعة ومد السور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران فى القاهرة الأيوبية، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش فى القلعة جعل القاهرة تنمو نمواً جديداً من ناحيتها الجنوبية حتى تم الاتصال بينها وبين الفسطاط «التى أقامها عمرو بن العاص، والعسكر التى أقامها صالح بن على العباسى، والقطائع التى أنشأها أحمد بن طولون» وبخاصة بعد إنشاء المدارس الجديدة بالقرب من قبة الإمام الشافعى وجامع عمرو بن العاص، كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية جعل من اليسير أن تنمو القاهرة كذلك فى هذا الاتجاه، ولكل هذا ـ كما يقول المؤرخ عبد الرحمن زكى فى كتابه عن القاهرة ـ ازدهر العمران وأنشئت فى الأحياء الجديدة الدور العالية، والحمامات الشعبية والأسواق العامة، وخانقاوات الصوفية.

ولاشك أن الفضل فى كل هذا التطور الحضارى يرجع إلى الرجل الذى قاد عملية البناء والتعمير بكفاءة واقتدار، فلم يكن بهاء الدين قراقوش ـ كما صوره خصومه ـ غبياً أو جاهلاً أو عبيطاً، وإنما كان وزيراً حازماً وإدارياً عبقرياً ـ ويكفيه فخراً أنه أشرف بنفسه على إقامة هذه المشروعات الهندسية الكبرى التى لاتزال مثار دهشة المؤرخين.

إنصاف:

إذا كانت تلك شخصية قراقوش الحقيقية تشهد عليها أفعاله وإنجازاته، فكيف انقلبت الصورة لتحل محلها صورته الهزلية وتستقر فى أذهان الناس على مر العصور؟ ومن المسئول عن هذا التزييف المزرى؟ وكيف السبيل إلى تصحيح صورته إنصافاً للحقيقة التاريخية أولاً، وإنصافاً للرجل ثانياً حتى تمحى عنه المظالم والمفتريات «!!!».

لأستاذنا الراحل الدكتور عبد اللطيف حمزة دراسة شيقة عن شخصية قراقوش نشرت فى سلسلة «كتاب الهلال» تحت عنوان «حكم قراقوش» وفى حدود علمى فإنها الدراسة الأدبية والعلمية الوحيدة التى تعرضت لقضية قراقوش ومسحت عنه زيف الأباطيل التى لفقها خصومه، وقد سبق أن عرضت جانباً من هذه الأكاذيب التى تضمنها كتاب «الفاشوش فى حكم قراقوش» والنوادر والنكت التى قيلت للحط من شأنه، وكيف قام الدكتور حمزة بتحليل هذه الآثار الأدبية تحليلاً أدبياً فى إطار دراسة شاملة عن الأدب الساخر. وقد استفزه أن الناس فى مصر والشرق لايذكرون شخصية قراقوش إلا مقرونة بالهزء به، والسخرية من عقله، إلى حد أنهم يتهمونه بالخبل والجنون، ولهم فى ذلك أخبار وحكايات يتندرون بها فى مجالسهم، ويحيكون حولها الحكم والأمثال، حتى لقد شاعت بينهم هذه العبارة «حكم قراقوش». يقصدون بها أن فلاناً من الناس يزيد أن يظلمهم أو يبطش بهم، أو يتعسف فى حكمهم، ويذهب فى ذلك مذهب المجانين المخبولين، كما فعل قراقوش بالمصريين وغير المصريين والواقع - يقول الدكتور حمزة - إن قراقوش لم يظلم ولم يتجبر ولم يبطش بأحد من المصريين أو غيرهم من

المسلمين، ولم يصدر فى عمل من أعماله عن عقل يمكن أن يوصف بالخبل أو الجنون، وإنه براء من هذه التهم التى كيلت له زوراً وبهتاناً، وزيد فيها على مرور الأيام، وأن فى صفحة تاريخه المجيد، وسيرته الحميدة، وفى عظم الجهود التى بذلها فى سبيل الدولة الجديدة «الأيوبية» ماينهض دليلاً على صدق مانقول.

فما سبب هذه الأحدوثة السيئة التى اشتهرت عن قراقوش؟ وعلى من يقع الذنب فى هذه الصورة المشوهة التى مسخت تاريخه الأبيض الجميل؟

يجيب الدكتور عبد اللطيف حمزة فيقول: سبب ذلك كله هو الأدب، والتبعة فى ذلك تقع على الأدباء، فهؤلاء هم الذين شوهوا سمعته ومسخوا للناس صورته، فإذا هى صورة تثير فى النفوس الضحك والازدراء، وإذا هى تصلح أن تكون مادة للسخرية من الحكام، ومايصدر عنهم من الأعمال. ثم يقول: ألا ماأقدر الأدباء فى كل زمان ومكان على أن يقلبوا الحق باطلاً، والباطل حقاً، والسخيف من الأعمال حسنا، والحسن سخيفاً، وكم فى تاريخ البشر من رجال عظماء أهملهم الأدب وعفى عن أثارهم، ورجال ليسوا بعظماء أبى الأدب إلى أن ينهض بهم ويخلق منهم بالكذب أبطالاً يتغنى الناس بمدحهم وهم ليسوا أهلا لهذا المدح. ولاتصدق هذه المقالة على رجل كما تصدق على قراقوش، ولو علم المسكين مبلغ تأثير الأدب، وعرف مبلغ قدرته على تسجيل الحوادث وطبعا بالحق أو بالكذب، لما ادخر وسعاً فى تملق الأدباء وإن كان الملق نفسه بغيضاً إلى قلبه، ولما قصر فى التودد إليهم بالكلام حيناً، وبالمال حيناً آخر، حتى يكونوا له أبواقاً تذيع فضله،

وتعلن فى الناس مجده، وتنسج حوله هالة رائعة من البطولة، ثم تترك للخيال الشعبى بعدئذ أن يصعد بهذه البطولة إلى درجة التقديس، وفى البشر استعداد دائم لأن يرتفع بعضهم ببعض إلى مثل هذه الدرجة، ومن أجل هذا لانعرف دعوة دينية أو سياسية أو اجتماعية قد استغنت يوماً عن الأدب والأدباء، أو سكتت حينا عن اصطناعهم لها، واتخاذهم أداة لنجاحها وذيوعها، وحمل الناس جميعاً على تصديقها، والأخذ بها.

ابن مماتى:

غير أن قراقوش كان جنديا لا خبرة له بالأدب، ولاعلم له بسحره، وقد شاءت الأقدار أن تسلط عليه لسان أديب هو «ابن مماتى» كان يشغل منصباً كبيراً فى الدولة الأيوبية، ولأمر ما - لايمت إلى السياسة بصلة - كتب هذا الأديب كتاباً فى هذا الجندى الصبور، وجاء كتابه هذا مفعما بالسخرية المرة من قراقوش وحكمه، وأقبل الخاصة والعامة على قراءة الكتاب، وأخذوا يومئذ بقوة سحره، وشدة أسره، وذهبت العامة تعتقد الشر والخبل فى هذا الرجل، وهو نفسه بعيد عن كل هذه التهم، حتى صدق عليه القول المأثور «لاكرامة لنبى فى قومه» وانتقل الكتاب نفسه من مصر إلى بقية أقطار الإسلام، واتخذ لنفسه فى كل قطر منها صورة تتفق مع ميول هذا القطر وظروفه، وأوشك الناس فى جميع تلك البلاد أن ينسوا تاريخ الأمير العظيم قراقوش وأصبحوا لايذكرون غير كتاب «الفاشوش فى حكم قراقوش» الذى وضعه الأديب الداهية ابن مماتى فى ذمه والغض منه.

وقدم لنا الدكتور حمزة فى كتابه بعض المعلومات عن المرحلة الأولى من تاريخ بهاء الدين قراقوش، وهى معلومات شحيحة شأن كل

العظماء الذين نشأوا من السفح فلم يذكر التاريخ شيئاً عن نشأتهم الأولى، وكل مايعرف عن قراقوش أنه فتى رومى خصى، ولد ببلاد آسيا الصغرى «الأناضول» وكبر بها ثم اتصل فى ظروف غير معروفة بضابط كبير من ضباط السلطان نور الدين محمود، ونعنى به أسد الدين شيركوه الذى عمل مع أخيه نجم الدين - والد صلاح الدين فى خدمة نور الدين وفى دمشق تسمى الفتى الخصى باسم «بهاء الدين ابن عبد الله الأسدى» وهى كناية عن أنه لايعرف له أب مسلم، أمام وصفه بالأسدى فنسبة إلى سيده أسد الدين شيركوه، ويبدو أن رجال الجيش فى دمشق كانوا قد أنسوا من الفتى رشداً، ووجدوا فى أخلاقه ميلاً إلى الشدة والصلابة، والقدرة على مواصلة العمل، فأدنوه منهم، ومنحوه رتبا عسكرية شجعته على خدمتهم، وضربوا به المثل فى الصبر والجلد والمثابرة، فما لبث بهاء الدين قراقوش أن أصبح أميراً من أمراء الجيش الذى دخل مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه ربان الصراع بين الصليبيين والفاطميين فى أخريات أيامهم. وشهد الرجل بنفسه انهيار الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية بسواعد صلاح الدين، وتصدى قراقوش للمؤامرات التى دبرتها بقايا الجيوب الفاطمية لإسقاط صلاح الدين الذى عهد إلى خادمه الأمين وصديقه الغيور قراقوش بحراسة خزائن القصور الفاطمية وماتضمه من أسلحة وكنوز وذخائر، فأدى المهمة بأمانة شجعت صلاح الدين على الاعتماد عليه فى خطيرات الأمور وفى طليعتها بناء القلعة وأسوار القاهرة على النحو الذى شرحناه آنفاً. وظل الرجل يواصل أداء خدماته للدولة الأيوبية حتى بعد وفاة صلاح الدين. وبقى على ولائه لابنه العزيز الذى أنابه فى حكم مصر أثناء غيابه عنها، فحافظ الأمير قراقوش على العرش محافظة وضعته فى مكانة رفيعة بدولة الأيوبيين.

دخان كثيف:

ولكن شاء القدر أن يسلط على تاريخ هذا الرجل العظيم دخاناً كثيفاً حال بينه وبين الناظرين إليه. أما الذى حرك هذا الدخان فهو الأديب «ابن مماتى» واسمه الأسعد أبو المكارم بن الخطير أبى سعيد مهذب بن مينا بن زكريا بن أبى قدامة بن أبى مليح مماتى، ولد حوالى سنة ٥٤٤هـ من أسرة مسيحية بأسيوط، واشتهرالرجل بالأدب حتى أصبح من كبار الأدباء، واتصل بالقاضى الفاضل زعيم النهضة الأدبية فى زمانه، وبالعماد الأصفهانى، وتوصل ابن مماتى لأن يكون رئيساً لديوان الجيش فى عهد السلطان صلاح الدين، ومعنى ذلك أن الرجل نشأ فى بيت غنى وجاه، وكانت أسرته من الأسر المشهورة فى الديار المصرية، وكانت تتولى عملاً هاماً من أعمال الحكومة المصرية على عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية، وأنها دخلت فى الإسلام فزاد الإسلام فى شأنها، وجمعت إلى جانب خصال الكرم والجود والأمانة والمروءة. صفة العلم والأدب، حتى أن ابن مماتى ـ خصم قراقوش ـ كتب عدداً ضخماً من الكتب، منها هذا الكتاب الذى وضعه خصيصاً للحط من شأن غريمه قراقوش. وصب فيه حقده على الأمير العظيم.

وقد عرض لنا الدكتور حمزة طرفاً من هذه المفتريات التى صاغها ابن مماتى فى شكل نوادر وقصص وحكايات تزرى من شأن الرجل حتى أصبحت عند الناس رمزاً للبله والغفلة والحمق والبخل والأنانية، ولكن الدكتور حمزة لم يقدم تفسيراً لهذه الخصومة، ولم يقدم لنا تبريراً لتحامل ابن مماتى على قراقوش، وإنما ركز كل جهده فى نقد محتويات كتاب «الفاشوش» نقداً أدبياً فى إطار دراسته عن الأدب

الساخر. ولعل عذر الدكتور حمزة أنه كان أستاذاً فى الدراسات الأدبية ولم يكن مؤرخاً مهمته البحث عن الدوافع والأسباب التى جعلت ابن مماتى يتحامل على قراقوش إلى حد القسوة والافتراء.

كازانوفا:

وكل ماجاء فى كتاب الدكتور حمزة عن هذه العقدة أن كتاب «الفاشوش» هو «من وحى رجل كابن مماتى فى ظرف من الظروف الخاصة، وأن السياسة أفادت منه كثيراً فيما بعد». ثم أعرب الدكتور حمزة عن عدم ميله إلى الرأى الذى ذهب إليه المستشرق «كازانوفا» من أن كتاب الفاشوش «يعتبر أثراً لحادث خطير هو سقوط الفاطميين، وأن الكتاب يعتبر المظهر الأخير لبغض مصر وأهلها لكل فاتح لبلادهم، وهو بغض أيقظه فى نفوسهم انهيار الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية التى أعادت الأمر فيها إلى بنى العباسى» فلعله من أجل ذلك ظن كازانوفا أن ابن مماتى كان من أولئك الموتورين من دولة صلاح الدين، وأنه كان يضمر لها الحقد والكراهية فى قلبه، برغم أن هذه الدولة أكرمته وأعانته وأسندت إليه أكبر المناصب.

وإذا كنا نوافق الدكتور حمزة على استبعاده لاجتهادات المستشرق كازانوفا فى تفسير حقد ابن مماتى على الدولة الأيوبية، إلا أن الدكتور حمزة لم يقدم لنا التفسير المقبول لهذا الحقد الدفين الذى طفح به قلب ابن مماتى تجاه قراقوش، أو الدوافع التى جعلته يختلق الأكاذيب لتشويه سمعته. ولقد اكتفى الدكتور حمزة بالقول «ومهما يكن من أمر هذا الكتاب ومهما تكنه البواعث التى دعت تصنيفه إذ ذاك، ومهما تكن الطرق التى استفادت السياسة بها منه ومن مصنفه، فالذى حدث هو أن

هذه النوادر القليلة المضحكة نالت من سمعة الأمير بهاء الدين قراقوش وغضت من شأنه، وغيرت من رأى الناس فيه وفى عقله وخلقه، وسواء أكان هذا التغيير الذى حدث فى رأيهم وقع فى حياة صلاح الدين، أم وقع بعد موته، فإن من الحق لصاحبه الأمير أن ينتصف لنفسه، وأن يرفع دعواه إلى محكمة التاريخ الصحيح، وقد فحص التاريخ نفسه هذه القضية، وآن له أن ينطق بالحكم الذى وصل إليه.

●●●

ولاشك أن أستاذنا الجليل المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة قام بجهد الناقد والباحث الأدبى فى تحقيق كتاب الفاشوش، ولاشك أنه أعاد الاعتبار إلى قراقوش أمام محكمة التاريخ وأمام الرأى العام.. ولكن يبقى ملف القضية مفتوحاً حتى نعرف الأسباب والبواعث التى دفعت أديباً كبيراً مثل ابن مماتى يطعن أميراً قديراً وقائداً عبقريا مثل هذه الطعنة المسمومة. ولعل فى الجيل الحالى من المؤرخين من يعكف على دراسة هذه الحلقة الغامضة حتى نرفع الظلم عن رجل ظلمه التاريخ.

المنقذ من الضلال

للإمام الغزالى

فى شبابى سمعت الأستاذ عباس محمود العقاد يصف الامام أبا حامد الغزالى بأنه «أكبر عقل خلقه الله» وأذكر أن العقاد ساق من الشواهد والبراهين ما يبرر هذا الوصف الخطير وإن كان عقلى الصغير يومئذ لم يستوعب شيئا مما قاله العقاد، فالقضايا التى أثارها عن الغزالى وصراعه العنيف ضد الفلاسفة واتهامهم بالتهافت كانت أعقد من أن يفهمها فتى قادم من الريف قصارى ما يعرفه عن الغزالى أنه صاحب كتاب «إحياء علوم الدين» الذى اغترف الشباب منه صفاء العقيدة، ومكارم الأخلاق، ودقائق الحكمة المركزة فى عبارات قوية تشجى الأسماع والقلوب.

كان من الطبيعي أن يكون لكلام العقاد عن الغزالي وقع السحر في نفسي التواقة إلى المعرفة، وبدأت أقترب من هذا العقل الذي وصف بأنه أكبر عقل خلقه الله، والذي دخل التاريخ تحت اسم «حجة الاسلام» ولم أدرك وقتها أنني دخلت غابة متشابكة الغصون، معقدة المسالك، وأنني أمام رجل حر التفكير إلى درجة دفعت به إلى الثورة على التقليد، لا يرى في الكثرة دليلا على صوابها، ولا في القلة برهانا على خطئها، حباه الله روحا سمحة تبحث عن الحق أينما وجده، وتسعى إلى الحقيقة المجردة عن الأباطيل.

ظهر الغزالي في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، في عصر اضطربت فيه أحوال الدولة الاسلامية، واستعرت الفتن والأعاصير، واشتعلت نار الصراع بين الفرق والمذاهب والنحل، كل فرقة تطعن أختها، وكل حزب بما لديهم فرحون، والناس منقسمون بين سنة وشيعة ومعتزلة وأشاعرة ومتصوفة وفلاسفة.. غم عليهم وجه الحق في هذا الشتات الفكري، ولكن.. في غمار العاصفة وقف الغزالي - كما وصفه أحد الكتاب المعاصرين - أشبه بزعيم وطني نبت في شعب ممزق متخاذل واهي الروح، فوحد صفوفه، وجدد روحه، وأحيا إيمانه.

شاهد الغزالي أخلاق العلماء والفقهاء، فإذا هي ضروب عجيبة من النفاق والرياء والتهالك على متع الحياة ، والزلفى إلى الحكام، فشك في أخلاقهم كما شك في علومهم، فأقبل على الفلسفة لكنه لم يجد فيها مايرجوه من إيمان الروح والقلب.

فانطلق حرا من كل قيد، ينشد النجاة والهداية، ويسعى إلى سلامة النفس، وراحة الضمير، وامتطى زورقا شراعه العقل، وزاده الزهد،

وبوصلته مضبوطة على مرفأ الحقيقة؛ يسعى إليها جاهدا ومجاهدا، ما ترك علما الا واغتراف منه، ولا صادف مذهبا الا وبحث فى أصوله ومنابعه، ولا وجد فرقة إلا ودرس معتقداتها ومنابعها، فكان كالبلورة انعكست عليها جملة ألوان مما جعل الجميع يتنازعونه: فالمتصوفة يرونه صوفيا والأشاعرة يرونه. أشعريا، والفلاسفة يحسبونه فيلسوفا، وهو يأخذ من كل منهل بنصيب حتى لتحسبه الف رجل فى رجل، ثم تفاجأ بتمرده على كل أولئك، فتراه علما فرداً ليس إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وإنما هو نسيج وحده.

بدأ الغزالى سياحته العلمية من نقطة الشك فى صحة العلوم والأفكار، وابتلاه الله بهذه الجرثومة النافعة ـ جرثومة الشك ـ وصولا إلى اليقين أو الحق الذى لا يداخله ريب، فكان مثل غواص يجوب الأعماق ليستخرج حبات اللؤلؤ النقية الخالية من الشوائب وليس أبلغ من الغزالى فى وصف هذه السياحة عندما قال عن نفسه فى كتابه العظيم «المنقذ من الضلال» ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، أتقحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمراته خوض الجسور، لاخوض الجبان الحذور، وأتوغل فى كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانتـه، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته. ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما الا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدا الا وأترصد ما يرجع

إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته، وقد كان التعطش لدرك حقائق الامور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى، غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى، لا باختيارى وحيلتى، حتى انحطت عنى رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا.

ونفهم من هذا التحليل النفسى الذى كتبه الغزالى الظروف التى نبتت فيها بذرة الشك عند الغزالى، فنعلم أن الرجل فطر على البحث عن الحقيقة، وأن الشك كان نقطة الانطلاق إلى هذا العالم الذى تختلط فيه الأفكار والآراء والمعتقدات، وأن عليه أن يتبين الحق من الباطل كما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. فأخذ يبحث عن الحق فى غاية الأفكار والملل والنحل، معتمدا على العقل والحواس، وعلى ظواهر القرآن والسنة، وعلى القضايا المشهورة، وجرب الرجل كل هذه الموازين وصولا إلى الحقيقة، وكان طبيعيا أن تتضارب الأدلة لأن درجتها من القوة والضعف ومن الصواب والخطأ ليست واحدة، فكان لابد أن يوجه النظر إلى نفس الأدلة، وفحص موازين الحقيقة.

يقول الدكتور سليمان دنيا فى كتابه «الحقيقة فى نظر الغزالى» أن الرجل فحص هذه الموازين فى ضوء تحديده للعلم اليقينى، وانتهى إلى أن الميزان الصحيح هو الذى يحصل هذا النوع من العلم، وهنا دخل الغزالى فى الدور الثانى من أدوار الشك، دور الهدم والعنف، فاستبعد سائر الموازين، ولم يستبق سوى العقل والحواس، فإنهما من القوة والوثاقة بحيث يظهر للانسان لأول وهلة أنهما يوصلان إلى العلم اليقينى.

ولكن الغزالى - على سبيل الحيطة والحذر - لم يقبل ميزانى العقل والحواس على علاتهما، بل أخذ يشكك نفسه فيهما، ويقتضى ما عسى يكون فيهما من ضعف فيرفضهما على أساس، أو يقبلهما على أساس. يقول الغزالى عن هذه المرحلة: فانتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الامان فى المحسوسات، ومن أين الثقة بها؟ وأقوى الحواس حاسة البصر وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفى الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف انه متحرك، وأنه لم يتحرك بغتة، بل على التدريج ذرة، حتى لم تكن له حالة وقوف، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الارض فى المقدار.. هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته.

خرج الغزالى من هذه المرحلة واثقا بالعقل فحسب، وهذا العقل، أو هذه الضرورة العقلية كما يسميها هو، مادامت موثوقا بها هذا الوثوق التام، فإنها يمكن أن تتخذ وسيلة إلى الحقيقة والعلم اليقين اللذين ينشدهما الغزالى، وفى نهاية المطاف أدرك الغزالى كنه الحقيقة، واتخذ قراره الجرىء باعتزال مباهج الدنيا وزينتها، واستصغر المجد الذى بلغه سعيا إلى المجد الأسنى والشرف الأبقى، وخلع ثياب الشهرة وتفرغ إلى العبادة والتأمل إلى أن توفاه الله فى سن الخامسة والخمسين. وقد سجل الغزالى مرحلة التحول الكبرى فى حياته فى كتابه «المنقذ من الضلال» بهذه العبارات البليغة: «فلم أزل أتفكر فى الأمر مدة، أ صمم العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال، وصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام، ومنادى الايمان ينادى الرحيل الرحيل..

فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أنت أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، ربما التفتت اليه نفسك، ولا تتيسر لك المعاودة، ثم لما أحسست بعجزى التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب».

وأخيرا... استطاع الغزالى أن يتحرر من خداع الدنيا وزيفها، وأن يتمرد على المجد الزائف، وأن يحمل نفسه على التجرد والزهد والتأمل، والانصراف إلى الحقيقة الخالصة التى تملأ النفس راحة وسعادة، وكانت نهاية المطاف لتلك النفس التى هامت فى سماء الهداية حتى رجعت إلى ربها راضية مرضية.

الفقيه والسلطان

من الحقائق التربوية المعروفة أن التلميذ يتأثر تأثرا كبيرا بشخصية الأستاذ، ويتشرب أخلاقه وصفاته، وربما قلده فى هيئته وزيه وطريقة مشيته وكلامه، ولو بحثت فى تاريخ أى عالم مشهور فسوف تجد أنه تأثر فى صباه بشخصية أستاذ بعينه، وانبهر بسلوكه وتصرفاته، ولا عجب فى ذلك فالقدوة لها دور كبير فى تربية النشء، وكلما كان القدوة جليل القدر، عالى الهمة، رفيع المستوى، نشأ الجيل قوى الخلق، سليم النفس والعقل والوجدان. والعكس صحيح. لأن افتقاد القدوة الحسنة يضع الشباب فى مهب الريح، ويحرمهم من المنارات المضيئة التى تضىء لهم مسالك الحياة، وترشدهم إلى الطريق القويم، فيكون الضياع والانفلات.

ولا شك أن عالمنا المصرى الكبير أبو جعفر الطحاوى تأثر فى صدر شبابه بنماذج مضيئة من العلماء والفقهاء الذين ازدانت بهم مصر فى

القرن الثالث الهجرى، ولكننا نتوقف عند عالم جليل كان له الأثر الأكبر فى تكوين شخصية الطحاوى علما وخلقا.. وهو القاضى (بكار) الذى شغل منصب القضاء فى عهد أحمد بن طولون ولمدة ٢٥ سنة متواصلة تخللتها سنتان قضاهما (بكار) فى السجن عندما رفض الانصياع لمطلب الحاكم أحمد بن طولون ويحكم بما يأباه ضمير القاضى.

ولم يكن (بكار) مصريا.. ولكنه كان عراقيا.. وجاء إلى مصر ليشغل منصب القاضى الذى يوازى فى أهميته منصب الوالى نفسه.. وقد درج الخلفاء العباسيون على أن يحتفظوا لأنفسهم بسلطة تعيين القضاة فى الأمصار - كالولاة تماما - مما يعطيك فكرة عن جلال هذا المنصب الذى ظل من اختصاص الخلفاء أنفسهم ولم يتنازلوا عنه للولاة بعد ذلك حتى وهم فى أشد حالات الضعف، وليس أدل على ذلك من الوالى أحمد بن طولون رغم استقلاله بمصر عن سلطة الخلافة لم يستطع أن يعزل القاضى (بكار) عندما غضب عليه. وأناب بكار - وهو فى سجنه - شخصا آخر ليتولى القضاء حتى خرج من سجنه.

وعندما قدم (بكار) إلى مصر سنة ٢٤٦ كان الطحاوى صبيا لا يتعدى السابعة من عمره، ولكن وجوده فى أسرة مشغولة بالعلم جعله يتسامع بذكر القاضى (بكار) الذى سارت بمحامده الركبان، واستوعبت ذاكرة الصبى ماتناثر عن سمعة (بكار) كما يتناثر الأريج العطر فيملأ الأجواء بهجة وجمالا.. واقترن اسم (بكار) بكل صفات الحمد والاجلال فانطبع ذلك فى قلب الطحاوى وهو غض صغير، وترك فى نفسه أثرا عميقا دفعه فيما بعد إلى أن يسعى إلى هذا الرجل العظيم، ويقترب منه حتى أصبح لصيق الصلة به.

إذا كنا نتابع هنا سيرة عالمنا المصرى أبو جعفر الطحاوى، فإن واجب الوفاء يقتضينا الإلمام بشىء من سيرة الأستاذ الذي استمد منه الطحاوى مكارم الأخلاق، وبذور المعرفة الأولى، ولا يعطينا كاتب سيرة الطحاوى - الدكتور عبد المجيد محمود - شيئا وفيرا عن حياة (بكار) قبل مجيئه إلى مصر، أما فترة إقامته بمصر، فالأخبار مستفيضة عن سيرته العطرة، وهو يرى أن مفتاح شخصيته إنما يتمثل فى زهده، حتى بات مضرب الأمثال فى الزهد والورع والابتعاد عن زخارف الحياة، حتى إن الحاكم أحمد بن طولون كان يبعث إليه كل سنة بألف دينار، ويحسب أن هذه الأعطيات التى استمرت ستة عشر عاما ستجعل له يدا على (بكار) يستحى معها أن يخالفه فى أمر يريده.

ولكن الحاكم لم يكن يعلم أن (بكارا) حرر روحه من متع الدنيا وصغائرها، وسما بنفسه فوق المال وغيره من الشهوات المحببة إلى الناس، فلما وضع (بكار) موضع الاختبار، ووجد نفسه مخيرا بين إرضاء الحاكم وإغضاب الخالق، رفض الأول وآثر الثانى مما كان له أسوأ الأثر عند ابن طولون الذى دفعه طغيانه إلى إيذاء (بكار) ووضعه فى السجن وكان القاضى بكار موضع ثقة ابن طولون فى المراحل الأولى من حياته القضائية، حتى أن ابن طولون أوفده إلى برقة للتفاوض مع ابنه (العباس) عندما أعلن التمرد على سلطان أبيه، وذهب (بكار) فى صحبة من وجوه مصر لاسترضاء الابن واقناعه بإنهاء العصيان والعودة إلى مصر وإبلاغه أن أباه قد صفح عنه. وإنه أقسم على ذلك أمامهم، وقدموا إليه خطابا من والده يحمل نفس المعنى، ولكن العباس لم يكن مطمئنا إلى نوايا أبيه وخشى أن يغدر به، فالتفت

إلى القاضى (بكار) وسأله: يا أبا بكرة.. المستشار مؤتمن، وأنا أقلدك أمرى.. وأسألك بالله: هل تأمنه علىّ؟.

والسؤال فى حد ذاته في غاية الاحراج.. وكان (بكار) يستطيع أن يتخلص من هذا الحرج بادعاء الثقة فى الوالى الذى أقسم بأغلظ الأيمان أنه صفح عن ابنه، ولكن ورع القاضى وزهده ودينه أبوا عليه أن يغش ضميره ويدعى ما لا يستطيع أن يضمنه، فقال للابن: قد حلف أبوك لك ألا يسوءك.. فإما أن يعنى لك بما حلف.. أو لا يعنى.. وما يعلم الغيب إلا الله جل اسمه..

- واقعتان:

وبعد ذلك حدثت واقعتان بين الحاكم المستبد أحمد بن طولون، والقاضى بكار، كان لهما الأثر فى تحامل الوالى على القاضى ونقمته عليه لأنه رفض أن يساير الحاكم ويحكم له بما يرضى هواه..

أما الواقعة الأولى فتتعلق بموقف الدولة من الأوقاف التى يتخلى عنها أصحابها، وكان أحد الأشخاص قد حبس أرضا على ولده - والحبس هو الوقف - ثم هرب من مصر وغادرها إلى غير رجعة، وعندئذ أشار بعض المفتين على السلطان بأن يستولى على الوقف. واستدعى أحمد بن طولون القاضى (بكار)، وعرض عليه ماقيل، وقال له: صاحبك يقول بحل الحبس فى الدين، فتحل حبس هذا الهارب منا، حتى نأخذ مال السلطان منه، فقال له (بكار): لا تفعل.. ولا تسن سنة يستن بها فيك، لأن لك أوقافا على وجوه.. فإن حللت حلوا عنك.. وعندئذ أخذ الوالى برأى (بكار) - على مضض - وشكر له مشورته عليه..

ـ المعتمـــد:

وكانت الواقعة الثانية مرتبطة بمسألة الخليفة العباسى (المعتمد) الذى كان يشكو من تضييق أخيه (الموفق) عليه، حتى أن الموفق حجر على أخيه الخليفة وتسلط عليه ومنعه من التصرف فى أمواله، ولكى يتخلص الخليفة من سطوة أخيه، فكر فى الهرب إلى مصر ليعيش فى كنف واليها أحمد بن طولون، وتمت المراسلات بينهما سرا.. ووافق الوالى أحمد على استضافة الخليفة المعتمد وسار المعتمد فى طريقه إلى مصر، ولكن الخطة انكشف أمرها.. وحال الموفق بين أخيه والوصول إلى مصر. وكان ابن طولون ينتظره بالشام، فلما علم بما فعله الموفق ـ وهو إذ ذاك ولى عهد أخيه الخليفة ـ جمع قضاة أعماله، واستفتاهم فى خلع الموفق ولعنه على المنابر، فأفتوه بذلك إلا القاضى (بكار). فأسرها ابن طولون فى نفسه، وما إن عاد إلى مصر حتى استدعى القاضى (بكار)، ووجه إليه عبارات قاسية تعدت حدود الأدب واللياقة، واتهمه بأنه لم يفعل ذلك إلا مسايرة لإعجاب الناس به، وقال له: أنت شيخ قد خرفت.. ونقص عقلك.. وأعجبك قول الناس..بكار.. وبكار.. فدعاك ذلك إلى أن خرجت عن جملة من شهد أن الموفق يستحق الخلع..

ومضى ابن طولون الطاغية فى سلسلة من الأعمال التعسفية لاهانة القاضى بكار.. فعرضه على الملأ فى الميدان.. وحرق ملابسه، وحبسه فى داره، ولم يرحم شيخوخته وقد قارب التسعين، ثم طالبه بالأموال التى كان يمده بها خلال الستة عشر عاما الماضية، وكان يظن أنه سيعجز عن ردها، ويجد فى ذلك مدعاة لمزيد من الاهانات.. وما كان أشد خجله عندما بعث إليه بكار بالأكياس التى تحتوى على الدنانير بخواتمها لم تفض.

وفى أثناء محبسه كان بكار يغتسل كل جمعة، ويلبس ثيابه ويهم بالخروج إلى صلاة الجمعة، فيمنعه الحرس، فيقول: اللهم اشهد.. ولجأ تلاميذه إلى الحاكم حتى يسمح لهم بالسماع من بكار فى محبسه فأذن لهم فكان يحدث الناس من طاق فى الدار التى حبس فيها.

ولما أشرف الطاغية أحمد بن طولون على الوفاة، تذكر بغيه على بكار، فبعث إليه من يفاوضه ويطلب منه الصفح، فكان رد بكار: شيخ فان.. وعليل مدنف.. والملتقى قريب.. والقاضى هو الله عز وجل..

ثم أطلق سراح بكار بعد وفاة ابن طولون.. فتوفى بعده بعشرين يوما فى ذى الحجة من عام ٢٧٠هـ..

ولا عجب أن تكون سيرة هذا القاضى الجليل قد خلبت لب الشاب الطحاوى.. فاتخذه قدوة يحتذى بها، ويسعى إلى تقليده وزاد إعجابه به بعد أن سمع منه وشاهده عن كثب وتأثر بمنهجه فى التفكير.

وبلغ التأثير والتأثر إلى حد انتقال الطحاوى من مذهبه (الشافعى) إلى مذهب بكار (الحنفى).

- تظلم :

ويبدو أن الطحاوى بلغ مرحلة النضج العلمى قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، وذاع صيته بين الناس، وعرفت الأوساط العلمية قدره وبراعته فى جميع مسائل الفقه بصفة عامة، وفى الشروط والتوثيق بصفة خاصة، فدفع ذلك القضاة إلى الاستفادة منه، والاستعانة به، والانتفاع بعلمه ومهارته. ويروى كاتب سيرته الدكتور عبدالمجيد

محمود واقعتين للطحاوى مع حاكم مصر أحمد بن طولون.. وكانت الأولى عندما ذهب الطحاوى إلى الحاكم متظلما من عدم تمكنه من استعادة ضيعة كانت مملوكة لجده سلامة بن عبد الملك. وقد جاء ذكرها فى بعض الكتب على النحو التالى:

ولقد بلغنى عن أحمد بن طولون قضية يؤثر فى النفس الزكية سماعها، ويحسن عند ذوى المعرفة والتوفيق وقعها. وكان ابن طولون هذا مبسوط القدرة على البلاد المصرية، نافذ الحكم فيها، مهيبا مخوفا، يقوم بسياسة الملك، ويعلى كلمة العدل ويأخذ نفسه بالانصاف، مع ما هوعليه من الجبروت المفرط، والقتل المسرف، وكان يجلس للمظالم، ويحضر مجلسه القاضى بكار بن قتيبة وجماعة من الفقهاء وأهل العلم، وكان ابن طولون إذا جلس للمظالم يمكن المظلوم من الكلام، ويسمع كلامه إلى آخره، ويكشف ظلامته، ويجلس بين يديه مقربا إليه.. قال أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى الفقيه:

اعترضت لنا ضيعة بالصعيد من ضياع جدى (سلامة)، فاحتجت إلى الدخول إليه، والتظلم مما جرى لى، وأنا يومئذ شاب إلا أن العلم والمعرفة بالحاضرين بسطنى على الكلام والتمكن من الحجة، فخاطبته فى أمر الضيعة، فاحتج علىّ لحجج كثيرة، وأجبته عنها بما لزمه الرجوع إليه، ثم ناظرنى مناظرة الخصوم بغير انتهار ولا سطوة على.. وأنا أجيبه وأحل حجته، إلى أن وقف، ولم يبق له حجة، فأمسك عنى ساعة، ثم قال لى: إلى هذا الموضع انتهى كلامى وكلامك، والحجة قد ظهرت لك، ولكن أجلّنا ثلاثة أيام، فإن ظهرت لى حجة، وإلا سلمت الضيعة إليك، فقمت منصرفا، فلما خرجت، قال ابن طولون بعد

خروجي للحاضرين: ما أقبح ما أشهدتكم على نفسي! أقول لرجل من رعيتي ظهرت لك حجة، أجلني إلى ثلاثة أيام إلى أن أطلب حججه(!!) وأبطل الحكم الذى قد أوجبته؟ من يمنعنى إذا وجبت لى حجة أن أحضره وألزمه إياها؟ هذا والله الغضب! وأنتم رسلى إليه بأننى بعد أن ألزمت حجته أزلت الاعتراض عن الضيعة، وقد قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا يقدس أمة لا يؤخذ الحق لضعيفها من قويها». وتقدم بالكتاب له. وعرف الطحاوى الحال من الحاضرين فذهب إلى الديوان، وأخذ الكتاب بإزالة الاعتراض وتسليم الضيعة للطحاوى.

مجادلة السلطان:

وإذا كانت القصة السابقة توضح لنا كم كان الطحاوى معروفا فى أوساط العلماء والفقهاء، وإنه كان متمكنا من علمه لدرجة مجادلة السلطان على مسمع من أكابر الفقهاء، فإنها تكشف لنا فى ذات الوقت عن صورة من صور الحكم فى مصر على عهد أحمد بن طولون، فهذا الحاكم الذى اشتهر بالتسلط والجبروت لم يستنكف أن يجلس وحوله الفقهاء والعلماء لرد المظالم وإعادة الحقوق إلى أهلها، ولا شك أنه كان على درجة من الفقه والعلم سمحت له بمجادلة صاحب الحق فى حقه على مسمع من أهل الفقه، فلما تبين له أن الحق فى جانب المدعى، لام نفسه عندما طلب التأجيل، ووجد فى هذا التأجيل مماحكة فى رد الحقوق يأباها الله ورسوله. وربما كان الحوار الفقهى الذى دار بين الوالى والفقيه الشاب أحمد الطحاوى سببا فى إعجاب الوالى به، مما دعاه إلى مشورته فى بعض المسائل الفقهية. وهى الواقعة الثانية التى ربطت بين الطحاوى وحاكم مصر أحمد بن طولون.

وكان ابن طولون قد بنى البيمارستان (المستشفى) وأراد أن يقف عليه وعلى المسجد العتيق أحباسا، وأراد أن يكتب وثائق هذه الأحباس، فكلف بذلك قاضى دمشق أبو حازم، وكان ممن أفتوا بخلع الموفق. فلما جاءت الوثائق من دمشق أحضر الوالى علماء الشروط لينظروا فيها ويتأكدوا من خلوها من الفساد، فنظروا.. فقالوا: ليس فيها شيء! فلما جاء الدور على الشيخ الفقيه أحمد الطحاوى - وهو يومئذ شاب، قال: فيها غلط، فطلبوا منه بيانه، فأبى، فأحضره أحمد بن طولون - وكان يعلم حياءه وتحرجه عن نقد مشايخه - فقال له: إن كنت لم تذكر الغلط لغيرى، فاذكره لى، فقال الطحاوى: لا أفعل، قال: ولم؟ قال: لأن أبا حازم رجل عالم، وعسى أن يكون الصواب معه وقد خفى علىّ!.

واستحوذ هذا الرد اللبق على إعجاب أحمد بن طولون، وقال له: إذن تذهب إلى الشام وتقابل أبا حازم وتوافقه على ماينبغى، فشد الطحاوى الرحال إلى الشام، واعترف أبو حازم بالغلط، فلما رجع الطحاوى إلى مصر، وحضر مجلس ابن طولون، سأله، فقال: كان الصواب مع أبى حازم، ورجعت إلى قوله.

وازداد إعجاب ابن طولون بالطحاوى لستره ماكان بينه وبين قاضى دمشق، واحترم فيه الوالى علمه ونبوغه، وأدبه الذى منعه من المفاخرة بعلمه.

كاتب :

وذاعت شهرة الطحاوى العلمية والخلقية، فاختاره قاضى مصر (محمد بن عبدة) ليكون كاتبه، ثم بلغت الثقة به أن استخلفه وجعله

نائبا عنه، واستمر الطحاوى يعمل فى هذه الوظيفة حتى تغيرت أحوال الدولة، وقتل خمارويه بن أحمد بن طولون، وتم خلع ابنه (جيش) وخلفه ابنه هارون - وكان شابا طائشا فأمر بحبس الطحاوى وطالبه بحساب الأوقاف، وظل الرجل معتقلا مدة لم تحددها كتب التراجم، وأغلب الظن أنه ظل فى المعتقل حتى زوال الدولة الطولونية، وعودة مصر إلى النفوذ العباسى، واعتزل الطحاوى منصبه القضائى بعد خروج القاضى الذى كان يعمل كاتبا له، فقد كان لكل قاض كاتبه الخاص، ثم تولى الطحاوى منصبا آخر كان فى ذلك الوقت من المناصب الرفيعة التى تتطلع إليها أنظار ذوى المكانة والجاه، وهو منصب الشهادة أمام القاضى، وحظى الطحاوى بهذا المركز الأدبى الممتاز، ومما يوضح أهمية وظيفة (الشاهد) وشرفها أن سراة البلد وأعيانها كانوا يتمنونها ويسعون إليها، ويستعينون بالشفاعات والأموال فى سبيل قبولهم من جملة الشهود، وكان هؤلاء الساعون إلى هذا المنصب يحقدون على الطحاوى لكى لا يشغل هذه الوظيفة، وحتى لا يجمع بين رياسة العلم وقبول الشهادة ومن هذا يتبين أن قبول الشهادة يعدل النبوغ فى العلم والرئاسة فيه، كما نتبين أيضا أن الطحاوى كان أستاذا ورئيسا للعلم فى مصر فى مطلع القرن الرابع الهجرى، ثم جمع إلى اعتراف الناس بعلمه ورئاسته، اعترافهم بنظافته وعدله وسمو أخلاقه، واستمر على ذلك إلى نهاية حياته، فهو ليس عدلا فى نظر قاض معين، دون غيره، بل هو عدل فى نظر الجميع، على اختلاف مذاهبهم.

فقيه مصر
الطحاوى.. إمام الأحناف

أثار مسلسل (الطبرى) الذى عرضه التليفزيون فى سهرات رمضان شهيتى وغيرتى - معا - للبحث فى تاريخ علماء مصر الأفذاذ الذين لا يعرفهم أبناء مصر المعاصرون، ولا جدال فى أن الامام الطبرى الذى ولد فى جبال طبرستان وعاش فى العراق يستحق كل تمجيد وتكريم، فهو من الرعيل الأول بين مفسرى القرآن الكريم ، ومن طليعة مؤرخى الاسلام المشهود لهم بالأمانة والدقة، فضلا عن علمه وفقهه، وقد قوبل المسلسل بالرضا والاستحسان من جانب جماهير المشاهدين وقد اكتملت له عناصر النجاح تأليفا وتمثيلا وإخراجا، فقد أجاد المؤلف رسم الخطوط لهذه الشخصية المتعددة المواهب، وبلغ الفنان القدير عزت العلايلى القمة فى الأداء بغير افتعال أو مبالغة، ولا ننسى جهد المخرج المبدع مجدى أبو عميرة فى إدارة هذا الفيلق من الفنانين والفنيين.

ولعل هذا النجاح الذى حققه مسلسل الطبرى، يدفعنا إلى البحث والتنقيب فى سير العلماء والفقهاء والمؤرخين والمحدثين والقراء الذين يتألق بهم تاريخ مصر الإسلامية، فالملاحظ أن التاريخ الذى نقدمه لأولادنا فى المدارس والجامعات، أو نراه مجسدا على شاشات السينما والتليفزيون يدور حول سير الأبطال من الحكام والسلاطين والخلفاء وقادة الجيوش، وقلما يهتم بإلقاء الضوء على أعلام النهضة العقلية وقادة الوعى والتنوير الذين انتجتهم مصر، وساهمت بهم فى حركة الثقافة الإسلامية العالمية، وكان لهم الدور الأجل فى تنشئة الأمة، وتربية وجدانها، والسير بها قدما فى مضمار الحضارة، وإذا كانت الحروب والمعارك ومشاكل السياسة والحكم والصراع على السلطة هى صناعة الحكام ومناط اهتمامهم، فإن بناء وجدان الأمة وتقوية روحها وشحذ عزيمتها هو رسالة العلماء والفقهاء وأرباب الفن والشعر والموسيقى والهندسة والتصوف، فالدول لا تبنى فقط على عواتق السيوف، وأسنة الرماح، ودوى القنابل، ولكن على وهج العقول، ونفحات الأرواح، ونفثات الأقلام، وذبذبة الأوتار، وربما نسى الناس أعمال الملوك والسلاطين، ولكن لا تضيع من ذاكرتهم قصيدة لشاعر مجيد، أو فتوى لعالم شجاع، أو لحن لموسيقى مبدع وربما اندثرت من ذاكرة المعاصرين أسماء سيف الدولة الحمدانى أو كافور الأخشيدى، ولكنهم لا ينسون أبدا اسم الشاعر الذى عاش فى بلاطهما، وأعنى به شاعر العربية الأكبر أبو الطيب المتنبى.

ويمكنك أن تضع نفس المقياس على العلماء والشعراء والفلاسفة والفنانين الذين عاشوا فى أحضان القصور، ولا تزال آثارهم تدل على ما قدموه للتراث الإنسانى من أعمال خالدة، ومع ذلك - وهذا هو بيت

القصيد - تبقى أسماؤهم مجهولة عن المعاصرين من خريجي الجامعات والمدارس ومشاهدى السينما والمسرح والتليفزيون، وهي ظاهرة مؤسفة لأنها تجعل من تاريخنا وكأنه مجرد حروب ودماء ومؤامرات ودسائس وصراع بين البيوتات الحاكمة، وتقطع بين الأجيال المعاصرة وبين تراثها الأدبي والروحي، فيحدث الانفصام.. أو ما يسمى بالفجوات بين الحاضر والماضي.. مع أن التاريخ - وتاريخ مصر بالذات - سلسلة مترابطة الحلقات متماسكة المراحل، إذا انقطعت منه حلقة تحول إلى شذرات أو شظايا متناثرة..

وقد أثار شجوني واقعة تعرضت لها مؤخرا ولا أجد حرجا في أن أعرضها على القارىء العزيز، فقد كنت أجلس في مكتبتي أقلب في بعض محتوياتها وأعيد ترتيبها، وأخذت أتصفح مجلدا كبيرا من ١٢٢٠ صفحة عنوانه (معجم أعلام الفكر الإنساني) صادر منذ عام ١٩٨٤ عن الهيئة العامة للكتاب ويتناول بالتعريف ٢٩٢ شخصية من علماء الشرق والغرب الذين كان لهم أثر في حياة البشرية، وقام بعملية التعريف نخبة من أساتذة الجامعات المصرية، كل فيما يخصه، وقام بتصدير هذا المعجم الكبير العلامة الجليل الدكتور إبراهيم بيومي مدكور أمد الله في عمره. و توقفت - فجأة - أمام اسم واحد من هؤلاء الاعلام هو (أبو جعفر الطحاوى) الذى عاش فيما بين عامي ٢٣٩ و ٣٢١ هجرية، وتذكرت أنني سمعت عن اسم (الطحاوى) عرضا من خلال رسالة جامعية، تحدث فيها صاحب الرسالة عما يسمى بالعقيدة الطحاوية (نسبة إلى الرجل) وكيف أن هذه العقيدة كما وضحها الطحاوى كانت الأساس الذى اهتدى به الإمام (الأشعرى) وهو يضع الاطار العام لعقيدة أهل السنة .. وهو الاطار الذى لا يزال معمولا به

حتى الآن عند جماهير المسلمين من أهل السنة، وتصورت عندئذ أن الطحاوى لابد أن يكون من علماء الفكر الاسلامى الذين انشغلوا بالفلسفة وقضايا الايمان والكفر والقضاء والقدر وصفات الخالق.. الخ.

وتصورت أن يكون الرجل عراقيا لعلمى أن علماء مصر الأوائل نفضوا أيديهم من قضايا الخلاف الفلسفى، وتفرغوا لعلوم الفقه والحديث والتفسير و ما ينفع الناس من فتيا، وتركوا علم الكلام للمعتزلة وأشياعهم فى العراق.. ولكن التعريف الذى كتبته الدكتورة فوقية حسين، وهى أستاذة للفلسفة، أوضح أن الرجل، واسمه أحمد بن محمد الطحاوى، نسبة إلى (طحا) وهى كورة - أي قرية - بصعيد مصر غربى النيل!!

الرجل إذن مصرى وليس عراقيا كما توهمت.. ولكن من يكون؟ وكيف عاش؟ وماذا قدم للعلم؟ كل هذه الأسئلة دارت بذهنى وبدأت ألتهم ما كتبته الدكتورة فوقية، ولكن لم أجد ما يشفى غليلى، ويلبى حاجتى إلى معرفة هذا العالم المصرى الذى عاش ستين سنة من القرن الهجرى الثالث، وعشرين عاما من القرن الهجرى الرابع، وكل ما ذكرته الكاتبة سطور قليلة عن مؤلفاته: ومن أبرز ما صنف (بيان السنة والجماعة، وهى عقيدته وتعنى بها كتاب العقيدة الطحاوية) وله أيضا مصنفات أخرى منها: أحكام القرآن - اختلاف العلماء - شرح الجامع الصغير والكبير فى الفروع للشيبانى - الفرائض - معانى الآثار.

والمراجع التى أثبتتها الكاتبة، وعددها أربعة، كلها من كتب التراث التى يتطلب البحث عنها جهدا يفوق طاقتى، و أخذ الألم يدب فى نفسى لعجزى عن الوصول إلى معلومات كافية عن (الطحاوى) العالم المصرى الذى أرسى قواعد العقيدة الإسلامية فى القرن الثالث

الهجرى، ولا أدرى كيف تملكنى إحساس غريب بأننى سوف أعثر على ما أريد فى رفوف مكتبتى، ولم تكن هذه المرة الأولى التى أتعرض فيها لمحنة البحث عن الكتاب المطلوب فى الوقت المناسب، وثبت من التجربة أن الإصرار على البحث يرفع من درجة التوتر النفسى ويحول بينى وبين البحث المتأنى، وعلى هذا.. طرحت الموضوع جانبا حتى نسيته .. أو تناسيته .. حتى حدث ما كنت أتوقعه .. وعثرت فى بعض الرفوف على بغيتى.. وكأننى عثرت على مصباح علاء الدين .. واكتشفت أننى أقتنى كتابا من ٣٧٠ صفحة عن حياة العالم المصرى الكبير (أبو جعفر الطحاوى وأثره فى الحديث) تأليف «عبد المجيد محمود»، صادر عام ١٩٧٥ عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالاشتراك مع الهيئة العامة للكتاب.. والكتاب سجل حافل لحياة الرجل وإن لم يتضمن أية معلومات عن مؤلفه، ويبدو لى أن الكتاب كان فى الأصل رسالة جامعية يستحق عليها صاحبها كل تقدير نظرا للجهد الكبير الذى بذله فى التاريخ لعالم مصرى يندر أن تجد مرجعا تحدث عن حياته وأخباره، ومع ذلك استطاع هذا الباحث الجاد المثابر أن يستنطق الكتب التى خلفها الطحاوى ويستخرج منها بعض جوانب هذه الشخصية المصرية الفذة والظروف التى عاش فيها، والأساتذة الذين تلقى عنهم العلم، والتلاميذ الذين تخرجوا على يديه، ومصادر ثقافته، وآثاره العلمية والدوافع التى جعلته يتخلى عن مذهبه الأصلى (الشافعى) ويعتنق المذهب الوافد (الحنفى) حتى أصبح شيخا للمذهب، وهو أول مصرى يشغل هذه المكانة الفقهية البارزة التى كانت حكرا على القضاة القادمين من العراق.

وقبل أن نتحدث عن الرجل، نتحدث عن العصر الذى عاش فيه، لأن الانسان ابن عصره، ونتاج الظروف الاجتماعية والسياسية

والثقافية المعاصرة له، أما العصر الذى عاش فيه الطحاوى فهو عصر الدولة الطولونية التى شهدت ازدهارا سياسيا واقتصاديا بعد أن استقلت بمصر عن الخلافة العباسية، وأصبح لها شخصية مستقلة عن بغداد، وتحققت لها نهضة علمية تنافس النهضة التى شهدها العراق فى عصر الرشيد والمأمون.

وعندما نتحدث عن «الاستقلال» فى عهود الدولة الاسلامية ينبغى أن ننظر إليه بعيون الفترة الزمنية التى حدث فيها، وليس بمقياس «الاستقلال فى العصر الحديث» ذلك أن استقلال مصر عن الدولة العباسية - وقد حدث أكثر من مرة - يختلف عن الاستقلال الوطنى الذى خرجت به مصر عن سيطرة بريطانيا أو الجزائر عن فرنسا، فعلاقة مصر مع بريطانيا كانت علاقة احتلال بلد غربى استعمارى لبلد شرقى عربى مسلم، وكذلك شأن الجزائر مع فرنسا، والصومال مع ايطاليا، و أندونيسيا مع هولندا، أما علاقة مصر بالدولة الاسلامية «الأم» فكانت علاقة عضوية ينتظمها إطار واحد تتفاعل فى داخله وحدة العقيدة والثقافة والقانون، ويجمعها هدف واحد هو اقامة الاسلام فى الأرض بأخلاقه وأحكامه ومثله وحضارته، وكل هذه الدويلات تنظر إلى «الخلافة» باعتبارها رمزا سياسيا لوحدة الأمة الاسلامية، ومقر قيادتها العالمية، ولكن هذه النظرة الجامعة لم تمنع بعض الحكام ذوى الطموح من التمرد على سلطة الخلافة، والانفراد بإدارة البلاد التى تحت أيديهم وحكمها حكما وراثيا، والتصرف فى أموال البلاد بعيدا عن حسابات الخلافة.

وليس دقيقا ما يقال عند بعض كتاب التاريخ أن هذه العمليات «الانفصالية» أدت إلى ضعف الخلافة الاسلامية حتى طمع فيها

الأعداء، والعكس هو الصحيح، إذ إن ضعف الخلفاء وتخاذلهم وانشغالهم بالخمر والنساء والغلمان هو الذى أضاع هيبتهم، وشجع الجند والضباط على الإطاحة بهم، ودفع حكام الولايات إلى التمرد على «سلطة» الخلافة، وليس على «دولة» الخلافة، إذ كان من غير المتصور عقلا وفكرا أن تخرج دولة إسلامية عن وحدة العالم الاسلامى، إلا إذا خرجت من «خريطة» الاسلام إلى خريطة أوروبا مثلما حدث للأندلس بعد تغلب المسيحيين عليها وطردهم العرب منها فى أخريات القرن الخامس عشر الميلادى.

فالدول الاسلامية التى استقلت عن حكومة بغداد، ظلت محتفظة باسم الخليفة على عملتها، وظل اسمه يتردد على منابر الجمعة تأكيدا لمقام الخلافة فى نفوس المسلمين كرمز دينى يستحيل الخروج عليه، و هذا ما فعله أحمد بن طولون عندما أعلن استبداده بمصر عام ٢٤٥ هـ، ولم يكن أحمد بن طولون مصريا حتى يقال إنه كان يعبر عن نزعة قومية استقلالية مثلما حدث فى بعض الأقاليم الفارسية، ولكنه مملوك تركى يرجع أصله إلى مدينة بخارى، وتربى فى بلاط الخليفة المأمون وحفظ القرآن الكريم وتعلم الفقه على مذهب أبى حنيفة، وتدرج فى سلك الجندية حتى بلغ مركزا مرموقا، ثم انفتح أمامه باب الحظ ليكون حاكما على مصر بالنيابة عن زوج أمه (باكباك) وهو أمير تركى كانت مصر من نصيبه، وقد درج الخلفاء العباسيون - منذ عهد المعتصم - على جعل الأتراك حكاما على الأقاليم الاسلامية نكاية فى العرب والفرس.

ولكن هؤلاء الحكام كانوا يرفضون مغادرة البلاط العباسى فى بغداد حتى يكونوا على مقربة من ولى نعمتهم، ويأمنوا شر الدسائس التى

تجرى فى القصر، وكانوا ينيبون عنهم بعض الثقاة والمحاسيب لادارة الأقاليم الممنوحة لهم، وجاء أحمد بن طولون إلى مصر ليحكمها نيابة عن زوج أمه (باكباك)، فلما مات الأخير كان المفترض أن يعود ابن طولون من حيث أتى، ولكن الحظ خدمه مرة أخرى اذ أصبحت مصر من نصيب والد زوجته (بارقوق) فاقره على حاله، وقال له تسلم من نفسك إلى نفسك!!

ويقى ابن طولون فى مصر ولم يغادرها أبدا، وراودته أحلام الاستقلال بها لأول مرة منذ دخلها الاسلام، منتهزا حالة الضعف التى أصابت الخلافة، ويجمع المؤرخون على أن الرجل كان - رغم جبروته واستبداده - جادا طموحا فطنا ذكيا، انتقل بمصر نقلة هائلة فتحولت من ايالة أو ولاية تابعة للخلافة العباسية إلى دولة مستقلة مزدهرة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا، وبدأ أحمد بتكوين جيش قوى يضم أكثر من مائة ألف جندى مزودين بأحدث الأسلحة وقتئذ، وأقام فى جزيرة الروضة دارا لصناعة السفن قدمت لمصر اسطولا بحريا قويا، ثم تطلع غربا شمالا وشرقا فامتد نفوذ مصر إلى برقة والشام وجزء من العراق، واقام قاعدة بحرية حصينة فى عكا ظلت صامدة أمام الصليبيين بعد ثلاثة قرون من بنائها، كما تحدت مدافع نابليون فى مطلع القرن التاسع عشر حتى عجز عن اقتحامها.

والتفت ابن طولون إلى المصالح المصرية، واتخذ كل ما من شأنه زيادة الموارد المالية، فأمر بتطهير النيل وشق الترع والمصارف، وشجع الفلاحين على ملكية الأراضى بعد أن خفف عنهم الضرائب، فازدهرت الزراعة وقامت عليها صناعات وطنية للنسيج والسكر والصابون والخزف، وتوحدت التجارة بين مصر وسوريا فأصبحتا حلقة

الاتصال بين تجارة الشرق والغرب مما أتاح لمصر دخلا كبيرا من حصيلة المكوس الجمركية المفروضة على تجارة الترانزيت.

وخلاصة القول: إن مصر شهدت في عصر ابن طولون نهضة عمرانية وحضارية وثقافية وعلمية، وأصبحت مقصد العلماء من شتى بقاع العالم الاسلامى، وفى وقت واحد اجتمع فيها الامام (الطبرى) وصاحب السيرة محمد بن إسحق، ومحمد بن نصر المروزى و كان رأسا في الحديث والفقه، كما جاء إليها أئمة الحديث المرموق: البخارى ومسلم والنسائى و غيرهم من أساطين العلم والأدب، وكان ابن طولون قد أقام لمصر عاصمة جديدة مجاورة للفسطاط، يتوسطها مسجده الكبير الذى لا يزال قائما حتى الآن، وتناثرت من حوله الحدائق والبساتين، وأصبحت مصر مركزا حضاريا ينافس بغداد فى عصرها الذهبى.

ولا شك أن المؤرخ الطبرى قد لمس بنفسه مظاهر التقدم الحضارى الذى تحقق لمصر على يد ابن طولون، ولا شك أن هذه المظاهر الحضارية قد أسعدت وأثلجت صدر الطبرى وهو العالم الفقيه المؤرخ الذى يزن الأمور بميزان العدل، ولذا تملكتنى الدهشة عندما رأيت فى المسلسل التليفزيونى مشهدا للطبرى وهو يعتلى المنبر ويلقى خطبة يشن فيها حملة شعواء على حاكم مصر ـ أحمد بن طولون ـ لأنه استقل بمصر عن بغداد وتسبب فى تمزيق العالم الاسلامى (!!) وأشك كثيرا فى أن يكون الطبرى قد فعل ذلك، ولو أنه فعل لكان علينا أن نقول له أخطأت يا مولانا.. لأن هذا المؤرخ الكبير كان معاصرا لعملية (التمزق) التى تعرضت لها الدولة العباسية فى عصور خلفائها الضعاف، ولم تكن مصر هى أول دولة تستقل بذاتها عن بغداد، فقد توالى ظهور الدول

المستقلة منذ عصر الرشيد، وهو الذى أقام بيده دولة (الأغالبة) فى تونس لتكون حاجزا بينه وبين دولة الأمويين فى الأندلس، وجاء ابنه المأمون ليصنع الدولة (الطاهرية) فى خراسان منحة خالصة لتابعه الأثير طاهر بن الحسين و أولاده من بعده، ثم ظهر بعد ذلك عدد من الدول: الزيارية والصفارية والسامانية حتى اهترأ الجناح الغربى للدولة العباسية.. فلم تكن مصر اذن فريدة فى استقلالها، و أغلب ظنى أن ما ورد على لسان الطبرى من تهجم على أمير مصر، هو من اجتهادات مؤلف المسلسل أو كاتب السيناريو، من باب المراءاة لعواطف الجماهير المعاصرة التى تعيش على أمل وردى عاطفى فى تحقيق الوحدة العربية أو الاسلامية دون أن تدرك الظروف التاريخية والواقعية لهذه الوحدة، والمراحل التى مرت بها، وفى رأيى أن دغدغة عواطف الجماهير بحلم الوحدة دون تبصرة بتطوراتها هو خطأ ينبغى أن يترفع عنه كتاب التاريخ حتى لا نساهم فى تعبئة المشاعر بأحلام خداعة.

ولا يمكن أن يدعى الطبرى أو غيره من فحول المؤرخين أن هوجة الاستقلال الذاتى للدولة الاسلامية كانت نكبة أو كارثة على الاسلام كما يشاع على ألسنة مروجى فكرة الوحدة، وينبغى أن يتوفر لكتاب التاريخ الأمانة التى تفرض عليهم أن يقولوا للمعاصرين إن الدول التى استقلت عن حكومة بغداد شهدت نهضات علمية وثقافية واجتماعية واقتصادية، وبعد أن كان للاسلام مركز حضارى واحد ـ هو بغداد ـ أصبح له مراكز متعددة فى دمشق ونيسابور وبخارى وطشقند والفسطاط و القيروان وغيرها وغيرها.. فظاهرة الاستقلال لم تكن شرا مستطيرا، ولكنها كانت خيرا وبركة على الشعوب الاسلامية التى تخلصت من احتكار الخلفاء للأموال وإسرافهم وسفههم ، وازدهرت الحضارة فى البلدان المستقلة بعد أن أمسكت زمامها فى يدها.

الطحاوى . . من مذهب الشافعى
إلى مذهب أبى حنيفة

ظهر عالم مصر الكبير أبو جعفر الطحاوى فى عصر شهدت فيه مصر نهضة علمية قوية بعد أن استقلت عن السلطة المركزية فى بغداد، وتبلورت شخصيتها المستقلة فى كافة فروع العلم. وأثمرت البذور التى غرسها آباء الفقه المصريون من أمثال يزيد بن أبى حبيب والليث بن سعد وعبدالله بن وهب.. وأصبحت مصر مقصدا للعلماء من شتى البقاع ينهلون من علمها. ويضيفون إليه، وتحولت الفسطاط إلى مركز لاشعاع المعرفة حيث يجتمع الناس فى حلقات حول العلماء..

هذا يفسر القرآن الكريم، وذاك يروى أحاديث الرسول ﷺ. وهذا يروى للناس وقائع التاريخ، وذاك يتحدث عن أشعار العرب وأنسابهم..

ومع بداية القرن الهجرى الثانى وفد إلى مصر الامام العظيم محمد ابن ادريس الشافعى بعد رحلة طويلة نضج فيها مذهبه فى الفقه، فاختار مصر مستقرا وموطنا حتى وافته المنية فى عام ٢٠٤ هـ وكانت سنوات عمره الأخيرة التى قضاها فى مصر خيرا وبركة، فقد حمل إليها مذهبه الجديد الذى يختلف عن مذهب مالك فى استنباط الأحكام، وواجه الشافعى صعوبات كبيرة حتى يقنع المصريين بطريقته الحديثة التى تعتمد على القياس أكثر مما تعتمد على الأثر، وشيئا فشيئا بدأ المصريون يتفهمون طريقة الشافعى ويتحمسون لها، وأصبح مذهب الشافعى منافسا لمذهب مالك فى مصر، إلى أن تسلل مذهب الامام أبى حنيفة إلى مصر عن طريق القضاة العراقيين الذين كانت تبعث بهم الحكومة العباسية للاشراف على القضاء. وأخذت المذاهب الثلاثة تتنافس على اجتذاب أكبر عدد من الأتباع والأنصار.

وقد أعطانا المؤرخ المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم) صورة جلية لهذه النهضة العلمية التى شهدتها مصر ممثلة فى مجالس العلم وحلقات الفقه والأدب. قال: وبين العشاءين جامعهم - يقصد جامع عمرو بالفسطاط - مغتص بحلق الفقهاء، وأئمة القراء، وأهل الأدب والحكمة. ودخلتها مع جماعة من المقادسة - أهل بيت المقدس - فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين: دوروا وجوهكم إلى المجلس. فننظر، فإذا نحن بين مجلسين. على هذا جميع المساجد، وعددت فيها مائة وعشرة مجالس..

وظل مسجد الفسطاط يحتكر الاشعاع الثقافى. حتى إذا استقل أحمد ابن طولون بمصر، وأنشا فيها مدينة جديدة هى (القطائع) حول مسجده الكبير. اصبح هذا المسجد منافسا لمسجد الفسطاط فى إقامة

حلقات العلم. ودعا ابن طولون شيخ الحنفية الكبير القاضى (بكار) ليقيم فيه الصلاة ويلقى فيه الأحاديث. وكان أحمد بن طولون يحرص على حضور أحاديث القاضى بكار لما اشتهر به من علم غزير، وخلق كريم، وشجاعة نادرة، وكانت هذه الحلقات هى المدرسة الأولى التى تربى فيها امامناالطحاوى، وكان لإعجابه الشديد بالقاضى بكار أكبر الاثر فى تحوله إلى مذهب أبى حنيفة حتى أصبح أول عالم مصرى يتولى مشيخة هذا المذهب، وسيأتى توضيح ذلك فيما بعد ولكن ما يهمنا الآن هو إلقاء الضوء على مراكز الاشعاع العلمى فى مصر ومنها مسجد ابن طولون الذى اجتذب إليه جموعا كبيرة من المصريين وعلى رأسهم حاكم مصر نفسه، حتى ليقول الامام الطحاوى: ولا أحصى كم كان أحمد بن طولون يجىء إلى مجلس بكار وهو يملى الحديث، ومجلسه مملوء بالناس. ويتقدم الحاجب ويقول: لايتغير أحد من مكانه، فما يشعر بكار إلا وابن طولون إلى جانبه فيقول له: ايها الأمير.. ألا تركتنى حتى كنت اقضى حقك وأؤدى واجبك، أحسن الله جزاءك. وتولى مكافأتك..

● البداية :

فى هذا المناخ المشبع بالعلم والثقافة، ظهر إمامنا المصرى الكبير أحمد بن محمد الطحاوى، وإذا كان لشخصية القاضى بكار اكبر الاثر فى بناء شخصية الطحاوى وهو فى مرحلة الصبا، وتحوله إلى المذهب الحنفى، فإن هناك شخصية أخرى كان لها نفس الأثر، وهو خاله الامام أبو إبراهيم (المزنى). وإذا كان للأحداث الصغيرة أثرها فى تغيير مجرى حياة العظماء، فإن هذه الحقيقة تنطبق على سيرة الطحاوى

وعلاقته بخاله المزني.. وكان المزني أحد تلامذة الامام الشافعي ومن أكبر مروجي مذهبه في مصر ، حتى أصبح رأس هذا المذهب وبدر سمائه كما يقول ابن السبكي، ومما جاء في وصف المزني أنه كان مناظرا، ميالا للقياس، غواصا على المعاني الدقيقة، حتى وصفه الامام الشافعي قائلا: لو ناظر الشيطان لغلبه، وقال له: ولتدركن زمانا تكون اقيس أهل ذلك الزمان، وإلى جانب هذه الصفات العلمية، كان المزني يتمتع بصفات خلقية عالية منها الزهد والورع، فإذا فاتته صلاة في جماعة، صلاها خمسا وعشرين مرة وكان يغسل الموتى تعبدا واحتسابا ويقول: افعله ليرق قلبي، وكان إذا فرغ من مسألة فقهية صلى ركعتين.

ورجل هذا شأنه في العلم والخلق، كان من الطبيعي أن يكون وثيق الصلة بابن اخته، الطحاوي، وأن يكون المورد الذي ينهل منه أوليات المعرفة، ولكن وقع بين الشاب وخاله ما عكر صفو العلاقات بينهما، بل إلى القطيعة وانصراف الطحاوي عن مذهب خاله (الشافعي) إلى مذهب أستاذه الثاني بكار (الأحناف).

وقصة الخلاف وأبعاده يرويها مترجم سيرته الأستاذ عبدالمجيد محمود على النحو التالي:

لقد كان أبو جعفر الطحاوي قريبا من سن العشرين عندما حدث أمر خطير في حياته، ولعله في حياة أسرته ايضا ونظرتها إليه، وموقفها منه، وهو تحوله عن المذهب الشافعي إلى المذهب الحنفي، وقلما توجد ترجمة للطحاوي دون ذكر لهذا التحول، وخلاصة القصة أن الطحاوي كان يدرس على خاله احدى المسائل الفقهية، ويبدو أنه لم يفهمها بسرعة رغم تكرار الشرح، فاحتد المزني وقال للطحاوي: والله

لاتفلح..!! وكانت هذه العبارة - التى رأى فيها الطحاوى الشاب إهانة من خاله - سببا فى غضبه وانصرافه عنه إلى مذهب الاحناف.

ويعلق الأستاذ عبدالمجيد محمود على هذه القصة بقوله: إن مثل هذا الانتقال من مذهب إلى مذهب لايتم فجاة نتيجة لحادث معين، بل لابد أن تسبقه أمور مهدت له، ومقدمات أسفرت عن هذه النتيجة وكانت سببا لها، وهو يسرد بعض ملامح شخصية (الخال) المزنى ليتوصل منها إلى بعض صفات الطحاوى . ومراعاة عامل الوراثة. فالعرق دساس، وبعض دماء المزنى يجرى فى عروق الطحاوى حاملا معه بعض صفاته، وهو يرى أن الطحاوى أخذ عن خاله ميله إلى القياس والمناظرة، كما أخذ عنه حرية الفكر وعدم التقيد برأى أحد من الفقهاء، وإنما يعتنق ما يميل إليه قلبه بعد البحث والموازنة كما فاق خاله فى كثرة المصنفات.. فالطحاوى اذن كان لديه استعداد فطرى وراثى لتقبل منهج العراق، وقد توافرت له الشجاعة لاعلان تخيره لهذا المنهج، كما كانت الدعاية الطيبة للأحناف التى تمثلت فى شخصية القاضى بكار من بين مقدمات هذا التحول وكانت سيرة بكار مفخرة للعلم والعلماء، سيرةعطرة، قدوة تتبع، ومثلا يحتذى.

● **النشأة:**

لقد توغلنا فى الحديث عن المؤثرات العلمية فى شخصية الامام الطحاوى.. ولم نتطرق حتى الآن إلى ظروف نشأته الأولى، والأسرة التى نتج عنها والقرية التى ولد فيها، وهى أمور لابد منها لتوضيح التربة التى انجبت هذا الامام المصرى الكبير. وقد بذل كاتب سيرته عبدالمجيد محمود جهدا كبيرا فى استقصاء هذه البيانات الأولية،

خاصة إذا عرفنا أن المورخين نادرا ما يهتمون بالمراحل الاولى فى حياة المشاهير إذا كان هؤلاء المشاهير من أوساط الناس، ولم يولدوا فى القصور.

وقد أحسن الباحث إذ قام بجولة ميدانية فى قرية (طحا الأعمدة) التى ولد فيها الطحاوى واكتسب اسمها. فكان اشبه بالمحقق الصحفى إلى جانب كونه محققا تاريخيا. وجاءت زيارته للقرية فى يوم السبت وهو يوم سوقها وان لم يذكر تاريخ الزيارة ويقول عنها: وجدتها بلدة كبيرة تتبع مركز (سمالوط) على مسافة نصف ساعة بالسيارة من المنيا. ولها عمدة للمسلمين، وعمدة للأقباط، والمذهب المالكى هو الغالب على المسلمين من أهلها، وقد علمت أن هذا المذهب غالب على معظم قرى الصعيد، وسوقها كبير تكثر فيه القدور الحمراء التى تستعمل لتبريد الماء - لعله يقصد الازيار - ولاتزال هذه القدور تعرف فى بعض القرى المجاورة لها باسم (الطحاوى) - كما أشار إلى ذلك السمعانى - وتوجد بها كنيسة أثرية وبجوارها مباشرة مكان خال يطلق عليه انه (حصة المسلمين) وفى جنوبها الشرقى سور يضم عدة قبور لبعض افراد عائلة الشيخ، وبجوار قبور العائلة قبور أخرى يشيع بين الناس انها لصحابة استشهدوا فى هذا المكان، ولايعرف الناس إلا الأسماء الاولى لهم مثل: سيدى موسى، وسيدى عبدالله والست خولة، كما يوجد جامع قديم صغير يعرف بالعمرى نسبة إلى عمرو بن العاص، وبها بئر يستشفى بها. وأكوام اثرية ازيل معظمها.

فى هذه القرية الكائنة بالصعيد الأوسط، ولد محمد بن أحمد بن سلامة بن عبدالملك الطحاوى سنة ٢٣٩هـ من أب كان له اهتمام بالأدب والشعر أكثر من اهتمامه بالعلم، ولم يصل إلى مكانة مرموقة

تستوقف انظار المؤرخين، وكان الابن يعرض على أبيه ما يسمعه من أشعار العرب ويأخذ رأيه فيه، أما أمه فهى أخت الامام المزنى الذى سبقت الاشارة إليه كرأس من رؤوس المذهب الشافعى، ويبدو أنها كانت تشارك اخاها فى نصرة الشافعية، وقد ذكرها السيوطى بين أصحاب الشافعى الذين كانوا يحضرون مجلسه، وذكرها ابن السبكى والاسنوى فى طبقات الشافعية. ومعنى هذا أن الطحاوى جاء نتاج أبوين مثقفين بثقافة عصرهما، ونشأ فى بيت علم خالص مما كان له أكبر الاثر فى نشأته العلمية، وإذا كانت أسرة الطحاوى قد شغلت بالفقه والأدب فإنها ارتبطت بالسياسة بوشيجة، ونالها من متاعب السياسة وأوجاعها ما أصابها. وجاءت هذه المتاعب على رأس سلامة بن عبدالملك جد الطحاوى، وإبراهيم بن سلامة، عمه.

● محنة:

وقد وقعت أحداث هذه المحنة عام ٢٠٢هـ وارتبطت بالفتنة التى نشبت فى بغداد ضد الخليفة المأمون احتجاجا على الاجراء الذى اتخذه عندما نقل ولاية عهده إلى (على الرضا) إمام الشيعة الاثنى عشرية، وقد ترك هذا القرار هزة عنيفة فى الأسرة العباسية وهى ترى الخلافة تنتقل على يد المأمون إلى البيت العلوى، وتولى قيادة الثورة فى بغداد المطرب المشهور إبراهيم بن المهدى، أخو الرشيد وعم المأمون، وبعث إبراهيم برسله إلى انصاره فى مصر يطلب منهم خلع المأمون، وطرد الوالى العباسى السرى بن الحكم، وكان سلامة بن عبدالملك - جد الطحاوى - أحد وجوه القوم الذين أعلنوا التمرد على الخليفة وواليه، ودعوا إلى الثورة، وقامت معارك عنيفة بين القوات الحكومية وجموع الثوار، وكان سلامة بن عبدالملك على رأس فرقة بالصعيد. وكما فشلت

الثورة فى العراق.. فشلت فى مصر. وتم القبض على سلامة بن عبدالملك وابنه ابراهيم، وسيق الأب والابن إلى الفسطاط حيث تم إعدامهما. وهكذا دفع جد الطحاوى وعمه حياتيهما ثمنا لوقوفهما ضد الدولة العباسية، وليس من شك فى أن هذه الأحداث قد تركت بصماتها على حياة الأسرة، وربما دفعها ذلك إلى الانصراف إلى العلم والأدب والانصراف عن مخاطر السياسة ومتاعب الحكم.

وإذا كانت كتب التراجم قد أغفلت كل ما يتعلق بطفولة الامام أبو جعفر الطحاوى ونشأته الأولى، إلا أنه يمكن الاستنتاج بانه تلقى دروسه الأولى فى البيت، وانه حفظ القرآن، ونشأ كما نشأ صبية ذلك العصر، فحفظ شيئا من الحديث، وسمع بعض مسائل الفقه والنحو، ثم ذهب إلى المسجد، وانضم إلى الحلقات التى كانت تقام فى المساجد، ولعل خاله كان يوجهه فى هذه الاثناء ، حتى إذا اشتد عوده حمله على دراسة المذهب الشافعى، ولاشك ان (المزنى) خاله كان له أكبر الأثر على الطحاوى وطبيعى أن يتلقى الانسان فى بدء حياته كل ما يلقى إليه، وأن يقبل كل ما يقدم إليه دون أن تكون عنده القدرة على الفحص أو الموازنة، حتى إذا استكملت هذه الملكة أسباب وجودها بزيادة الخبرات، وكثرة الاطلاع وذكاء العقل، بدأت تستعرض مدخراتها مما لقنته، وتزنها بميزانها الخاص - كشخصية مستقلة متميزة - ثم تظهر خواص هذه الشخصية، متمثلة فيما تختاره لنفسها، نتيجة لميزانها، وكان حظ الطحاوى - كما يقول مترجم سيرته - من هذه الملكة كبيرا، إذ دلت موازينه على شخصية قوية حرة ولعل فى الخلاف مع خاله وافتراقه عنه أكبر دليل على هذه الصفات الاستقلالية التى هى نتاج الثقة بالنفس والاعتداد بالرأى، ورفض المهانة حتى لو كانت من خال.

• أصول الانتقال

وكان انتقال الطحاوي ـ وهو في صدر الشباب ـ من المذهب الشافعي إلى المذهب الحنفي دليلا على قوة شخصيته وامتلاكه ناصية الاجتهاد التي تسمح له بهذا الانتقال، ذلك أن عملية الانتقال من مذهب إلى آخر لم تكن بالبساطة التي نراها في زماننا، ولم يكن العالم يفعل ذلك إلا بعد معاناة فكرية، واقتناع تام بصحة الأدلة الفقهية التي يراها في المذهب الجديد، فالعصر كان عصر اجتهاد، وكان العالم يسير مع الحق حيث سارت ركائبه. ومتى ظهر له دليل مخالف لرأي إمامه واقتنع به اتبعه على الفور، ولم يظهر التقليد المحض للمذاهب والتعصب لها، إلا في القرن الخامس، حيث تلاشت المذاهب الصغرى، وأصبحت المذاهب الكبرى وحدها في الميدان، ثم أصاب نفوس بعض العلماء آنذاك ما أصاب عقولهم من جمود وضعف، فكانوا يجرون وراء المناصب والأغراض الدنيوية، ويغيرون مذهبهم تبعا لهذه الأغراض، وكان ذلك باعثا على سخرية الناس منهم، واستهزائهم بهم.. فهل كان الطحاوي من النوع الأول الذي يغير مذهبه بناء على فهم ودراسة ودراية؟ أم من النوع الثاني الذي يبحث عن منافع الدنيا؟

يقول مترجم سيرته إن نفسية الطحاوي كانت في حالة حرب وشد وجذب، وقلق وحيرة بين مذهب خاله ـ ولعله مذهب الأسرة جميعها آنذاك ـ وبين ما هيأته الظروف له من ميل إلى مذهب (بكار) مذهب أهل العراق، مذهب أبي حنيفة، حتى كان السبب المباشر الذي أنهى به الطحاوي هذه الحرب الداخلية، وقضى على تردده، واقدم على هذه الخطوة الجريئة، ونحن نعلم أن مكان الدرس كان (جامع الفسطاط) وأن حلقات العلم على اختلافها كانت متجاورة فيه، وأن حرية الاستماع إلى

أى هذه الحلقات كانت مكفولة يمارسها الطلاب، ولعل مساجلات المزنى وبكار ـ واطلاع المزنى على كتب الأحناف، وحرية العصر فى المناقشة والاجتهاد ـ لعل كل هؤلاء قد نبه ذهن هذا التلميذ الصغير، ثم الطالب الشاب، وايقظ حاسة الموازنة عنده، وجعله يجلس إلى حلقات الأحناف بين الفينة والفينة، أو يطلع على كتبهم ليعرف ما يقولون، ويقف على طريقتهم فى المناقشة والاستدلال، إشباعا لغريزة حب الاستطلاع، ولعله كان يسمع فى بعض جلساته مسائل وتفريعات يثيرها أهل الرأى ـ وهم مشهورون بذلك ـ فكان يسأل خاله عن هذه المسائل ويناقشه فيها، ولعل خاله قد ضاق بهذا الاتجاه الذى اتجه إليه ابن اخته، وحاول أن يقنعه بالعدول عنه، فلم يستطع، فكانت المغاضبة، ثم المقاطعة والانتقال إلى مذهب الاحناف فى وقت لم يكن لهم فيه رواج بمصر، وهذا دليل على أنه اعتنقه عن ميل إليه واقتناع به، وكل كتبه تشيد بهذا المذهب. ولعل موقف الناس منه لهذا التحول، وإنكارهم عليه جعله شديد العصبية له، كرد فعل لموقفهم، وإن لم يكن لهذه العصبية أثر على استقلاله وحريته فى الاجتهاد.

● مصادر الفقه:

ـ من أين استقى الطحاوى أصول مذهب أبى حنيفة؟

يقول الاستاذ عبدالمجيد محمود وهو يعدد المصادر الفقهية للطحاوى إنه انتفع بالقاضى (بكار) وتأثر به، إلا أن هذا التأثر ـ من الناحية العلمية ـ كان فى ميدان الحديث أكثر منه فى ميدان الفقه، أما الذى درس له فقه أهل العراق فهو أحمد بن أبى عمران الذى يصفونه فى كتب التراجم بأنه أستاذ الطحاوى، أو شيخ الطحاوى، الذى قدم إلى

مصر حوالى سنة ٢٦٠هـ، وهو من أعلام الفقه الحنفى، أخذه عن تلاميذ أبى يوسف. ومحمد بن الحسن الشيبانى. وأقام بها حتى توفى سنة ٢٨٠هـ أى مكث بها عشرين عاما تولى فيها مشيخة الحنفية، وكانت هذه الفترة كافية لأن تترك اثرها فى الطحاوى وتجعله محيطا بمذهب الأحناف ودقائقه واختلاف رواياته، فقد اتصل به فى سن العشرين، ولازمه حتى سن الأربعين . وفيما بين سن العشرين والثلاثين اتصل الطحاوى بأمير مصر أحمد بن طولون وكان له معه قصة تستحق أن تحكى.

رسالة من المؤلف

تلقيت الرسالة التالية من الدكتور عبدالمجيد محمود مؤلف كتاب «أبو جعفر الطحاوى»..

الاستاذ جمال بدوى - حفظه الله.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. فلشغفى بمقالاتكم وحرصى عليها، قرات مقالتكم الأخيرة فى سلسلة علماء من مصر عن (الطحاوى إمام الأحناف)

وقد أظهرتم فى المقال إعجابكم بكتاب (أبو جعفر الطحاوى وآثره فى الحديث) لمؤلفه عبدالمجيد محمود، وأنه ليس فى الكتاب أية معلومات عن مؤلفه.

ويسرنى أن أبلغكم بأن كاتب هذه السطور إليكم هو مؤلف هذا الكتاب، الذى أثلج صدره ثناؤكم على الجهد المبذول فيه.

وقد صدق حدسكم فى أنه كان رسالة جامعية، فقد نلت به درجة الماجستير بتقدير ممتاز من كلية دار العلوم جامعة القاهرة سنة

١٩٦٥م، وكنت حينذاك معيدا بهذه الكلية، ثم حصلت على الدكتوراه من الكلية نفسها سنة ١٩٦٨ وعينت مدرسا بها، وأنا الآن أشتغل بالتدريس بكلية الشريعة ـ جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

وكان فضيلة الأستاذ الشيخ على الخفيف ـ رحمه الله ـ أحد الذين ناقشوني في رسالة الماجستير، وقد اثنى على الرسالة ثناء أعتز به، وما زلت أحتفظ بهذا الثناء مخطوطا بخط يده.

وكنت قد تقدمت بالكتاب إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وأحاله إلى فضيلة الأستاذ الشيخ أبو زهرة ـ رحمه الله ـ الذى أقر طبعه ونشره، إلا أن الكتاب نام فى المطبعة نحو عشر سنوات ثم خرج بعد أن يئست من طبعه

أرجو أن تغفر لى حديثى حول نفسى ، الذى قصدت منه إلقاء ضوء على مؤلف (أبى جعفر الطحاوى وأثره فى الحديث) لأن الكتاب حقيقة خلا من أى تعريف

كما أرجو أن تتقبلوا خالص شكرى وعظيم إعجابى وتقديرى لشخصكم الكريم ولجريدة «الوفد» الغراء.

والسلام عليكم ورحمة الله

د. عبدالمجيد محمود عبدالمجيد
الأستاذ المشارك بكلية الشريعة
جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة

فهرس الموضوعات

١ أخبار الأذكياء لابن الجوزى ١١

٢ نصيحة الملوك للماوردى ٢٢

٣ الوزراء والكتاب للجهشيارى ٣٥

٤ المستطرف للأبشيهى ٤٧

٥ الفخرى لابن طباطبا ٥٧

٦ قوانين الملوك لابن العسال ٧٠

٧ المجموع الصفوى لابن العسال ٨١

٨ تحفة النظار لابن بطوطة ٩٢

٩ سراج الملوك للطرطوشى ٩٩

١٠ الفوائد والقواعد لابن ماجد ١٢٦

١١ الذخائر والتحف لابن الزبير ١٣١

١٢ الفاشوش فى حكم قراقوش ١٤١
١٣ المنقذ من الضلال للغزالى ١٥٢
١٤ فقيه مصر الطحاوى ١٥٨
١٥ الفقيه والسلطان ١٦٨
١٦ الطحاوى من الشافعية إلى الحنفية ١٧٨

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠١٩٦ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5853 - 4



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مائة وخمسون قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب